جنّة الخفافيش

بوي جون

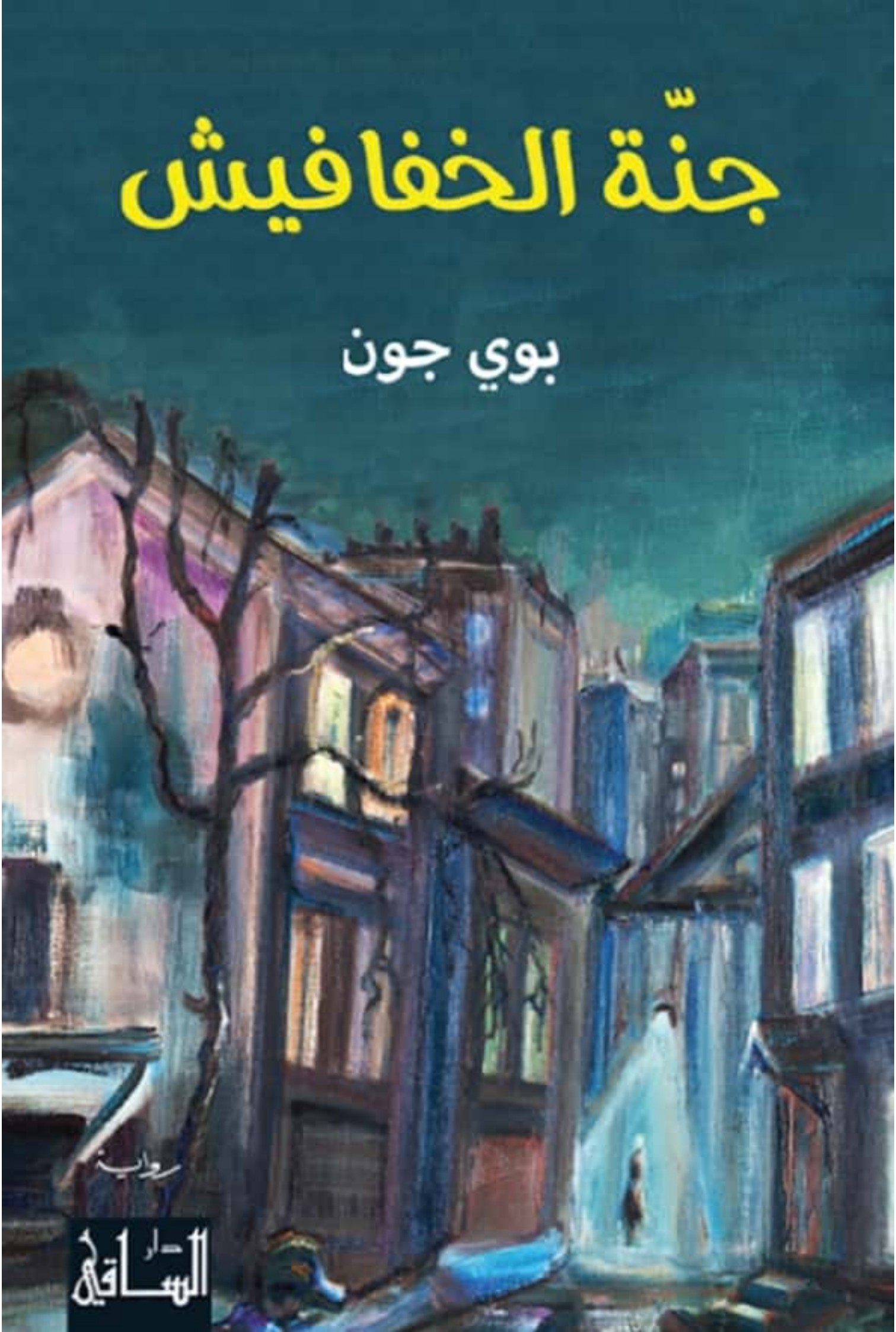

رواية

دار الساقي

جنّة الخفافيش

بوي جون

جنّة الخفافيش

آفاق AFAC
دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-0089-7

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)

شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان

صندوق بريد: بيروت 5290–13، لبنان
هاتف: +961-1-218901

email: info@arabculturefund.org

www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثانية، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

الجمعة ١٢ يونيو ٢٠١٥

بدت في عينيّ جميلة وفاتنة، تشبه سلاسة وحلاوة اسمها في اللسان عند النطق. إنه انطباعٌ نبت في رأسي في المطار، ربما تخلّق من يد النسيم الرائق الذي أخذ يداعب وجهي، بمجرّد أن وضعتُ أول قدم على الأرض نزولاً من سلّم الفوكر الروسية ذات المروحتين، ومفعماً بسلامة الوصول ولو بعد سنوات ودون استقبال من أحد، كأنّما القدر أراد لي العودة خلسة كما كانت الحال عند الخروج، شهقتُ قائلاً لنفسي مناجياً إيّاها:

- هذه مدينة واو، هذهِ واو إذاً!

إنه اليوم الأول، ما يزال كلّ شيء غريباً، حتى إن صورة منزلنا القديم المهترئ الذي أحمله في جيبي، تبدو بلا فائدة لأنّ المباني الحديثة نهضت في كلّ اتّجاه، وأزاحت تلك التي أحملها في رأسي من سنوات بعيدة: ذكرى السنوات الخمس أو الستّ يوم خرجنا، أمي وإخوتي وأنا، دون أن نلتفت إلى الوراء بأنظارنا، كنّا في عَذو إلى الأمام، كأنّنا لم نترك خلفنا شيئاً على الإطلاق.

لكن ذلك لم يكن صحيحاً أبداً، إذ إنه كلما ارتفع نظر أحدنا إلى الحائط وقعت عينه على شيءٍ آخر، فصورة أبي المعلقة بين وردٍ صناعي يُجدَّد في كلّ عيد، تبدو هنالك كأنّها عُلقت لتذكّر بأن لدينا ما يستحقُ الالتفات إلى الوراء بل والعودة أيضاً.

جرت سنوات الطفولة وجرفت البراءة معها، فتبيّن أن عودته ليست مسألة وقت فقط كما كنا نُخبر وصدّقنا، لأنّ أغراضه كانت على الدوام مرتّبة كأنّه سيدخل في أيّ لحظة من اليوم، وعلى سرير أمّي المرتفع الذي يحتلّ جلّ مساحة غرفتها، وُضعت وسادة أخرى تنتظر عودته، وكنّا عندما ندخل الغرفة في الأيّام التي تكون فيها عاجزة عن النهوض من الفراش، في المرّات النادرة جداً التي تمرض، نلاحظ حرصها الدائم على ترك جانب من الفراش مرتّباً، كأنّ شبحاً ما سوف يأتي ليرقد إلى جانبها. إذاً كنا ننتظر في أيّ لحظة خروجه من الإطارات الفضية لتلك اللقطة المسروقة، حسب لغة الفوتوغرافيين عندما يصفون صورة الثُقطت من دون انتباه الهدف.

لم يكن النسيم وحده ما قابلني عندما وصلتُ نهار أمس. خارج المطار رأيت آثار حرب انخمدت: طائرة ميغ كُتب على جانبها بالعربية "النصر لنا" لكنّها ترقد على الأرض محطمة، يمرّ الناس من جانبها دون أن يلقوا النظر عليها، لكن مجموعة من الصبيان كانوا يلعبون داخلها، قال لي السائق وقد وجد في انتباهي الشديد لها مناسبة للدردشة وكسر جدار الصمت بيننا:

- تلك حربٌ ذهبت، قتلت مَنْ قتلت ونجا مَنْ نجا ليحاول النجاة في حرب لعينة أخرى بدأت تأكل الأخضر في أطراف المدينة.

لم يحتج الرجل في الواقع إلى الكثير من الكلمات ليشرح لي أن الحرب تزحف إلى هنا أيضاً، حيث توقفت العربة بغتة ولبضع دقائق أمام نقطة تفتيش مرتجلة، ألقى خلالها جندي يبدو القلق والإرهاق جلياً على ملامحه نظرة عجلى علينا كلينا قبل أن يأمرنا بالتحرّك ومتابعة السير بإشارة من يديه.

زال التوتّر الذي تسرّب إليّ طوال الطريق نتيجة مشاهد الجنود المتجوّلين بأسلحة مدجّجة في كل الشوارع تقريباً، وشعرتُ بالنشاط وبرغبة في الخروج من الفندق حتى أرى كل شيء سمعتُ أنه هنا أو شاهدته في صورة ما. كانت مشاعر مختلطة تمور في رأسي لأنني وصلتُ أخيراً، بعد أن كدتُ أفقد الأمل جراء أكثر من محاولة فاشلة.

كل تلك المشاعر ترجمت نفسها في صورة ابن ضالّ يعود إلى حيث لا أحد متحمّس لاستقباله، ويبدو هو نفسه متردّداً في الرجوع، تنتابه الهواجس رغم أن هذا خياره الأخير، من أجل راحة ينشدها لضميره بعد أن جرّب غيرها من بيوتٍ ومدن.

الابن الضالّ أفضل حالاً! هكذا فكرتُ إزاء تلك المقارنة التي برقت في رأسي من حيث لا أدري، فهو، الابن الضال، على الأقل يعود إلى مكانٍ ينتظره فيه أحد، كما أن لديه حكايةً تُقصّ وذكرى تُروى، لا نكرة ولا صفر على الشمال مثلي أنا، وربما الذين غضبوا يوم

خروجه يستعدّون لاستقباله بعجلٍ مسمنٍ سوف يُنحر إكراماً له، وبينهم أبوه يأمر وينهى من أجل راحته.

أمّا أنا فهنا من أجل البحث عن أبي، لتجد نفسي راحة مفقودة، ذلك أنه عندما يناديني الناس دكتور أركانجلو أشعرُ بالراحة تغمرني، لأنني أعرف أن المقصود بالنداء هو أنا ولا أحد آخر غيري، عكس شعوري عندما أسمع أحدهم يقول: "أركانجلو مرجان"... حيث أتوجّس وأرتاب وأكون في شكٍّ من أمري، لأنني لا أعرف مَن يكون هذا الشبح الذي يلتصق باسمي، شاحباً مثل صورته الباهتة التي تعود إلى الستينيّات، حيث تظهر جميع المناظر بالأبيض والأسود مثل جميع صور تلك الفترة وما وراءها، وهو الأثر الذي رسّخ ملامح وقسمات وجهه الفاترة في مخيّلتنا، وها أنا أعود بحثاً عنه في مدينة لا أعرفها سوى من ذكريات في أحاديث عائلية مبعثرة المشاهد ومبتورة التفاصيل.

إنها ذاكرة ممزقة لا تستطيع وحدها أن تمنح الثقة، إنها أذرع حكايات ومشاهد تسرّبت إلي رأسي وعلقت به من كومة الصور التي تُسمّى ألبوم العائلة، وتفوح منها رائحة الفطر جراء الاحتفاظ بها بعيداً في ركنٍ قصيّ داخل غرفة أمّي، كأنه كنزٌ قيّم، ورسّخت ذلك الانطباع الطريقة التي كان يجري بها التعامل معه؛ كان يتم إخراجه بحرص شديد وحذرٍ مفرط إلى صالون المنزل في موسم الأعياد فقط.

وهكذا كانت تقع تلك الصور بين أيدينا نحن الصغار المكلفين بطريقة غير علنية تزجية فراغ الضيوف، ريثما ينتهي الكبار من مشاغلهم ويأتون من أجل إلقاء التحيّة وإبداء المجاملة.

في ذلك الزمان لم تكن الأطباق اللاقطة قد نبتت على أسطح المنازل بعد، وكانت الصور هي الأداة الوحيدة لتسلية الضيوف: كانت توضع إلى جانب قطع الحلوى وكعك العيد والبلح الملوّن، ودرجت العادة على أن يكون شخص ما في المكان من أجل أن يقدّم بعض الشروح الضرورية حولها؛ المناسبات والملابسات والحكايات التي تعيش داخلها.

كان يُترك لنا في الكثير من المرّات تولي دور الشارح ذاك، وخاصةً عندما يكون الضيف من الوزن الخفيف الذي لا يهتمّ لأمره أحد، لأنّ العيد مثل الريح يجلب أيّ شخص، الأمر الذي يجعل الاستقبال مهمة رتيبة، غير محبّبة بالنسبة للكبار، لأنه بالإضافة إلى الملل الذي يسبّبه، يقيّد عن المشاوير الخاصّة بلا طائل.

تلك كانت فرصاً تأتينا على طبق من ذهب لنقلب الذكريات المخبّأة طوال السنة، وبالتالي كان دخول أيّ ضيف من تلك العيّنة – الوزن الخفيف – يفتح لنا الطريق إليها لنقلبها رأساً على عقب، حتّى ترسّخت تفاصيلها في أدمغتنا الطريّة رغم أنّنا لا نظهر إلّا في القليل منها، كتلك التي تعود إلى مناسبات العماد، أو

أعياد الميلاد، دون نسيان المناسبات المختلفة التي تشهدها المدرسة.

ومن بين تلك الصور جميعها، كانت تستوقفنا مناظر الجنوب أكثر من غيرها، فنشعر بحنوّ غريب عندما تمسّ أطراف أصابعنا الأشجار التي تكاد بعض أغصانها من الخضرة تخلّف فينا إحساساً بأنّ المطر سوف يهطل علينا.

وكنا نشير إلى المناسبات كما لو كنّا حضوراً يومها، مثل تلك الصورة التي التُقطت في الكنيسة الكبيرة يوم عيد السيدة العذراء، ولستُ أفشي سرّاً عندما أقول إنني لطالما أحببتتها من بين صور الالبوم أكثر من غيره: تظهر في الصورة مجموعة من الأطفال الجالسين أمام المذبح، وخلفهم تمثال السيّدة يجسّد العذراء في حجم طفلٍ صغير وقد التفّ حول رأسها ما يشبه الإكليل المرصّع بحوالى ستّ نجومٍ زرقاء، وكان يقف ملاصقاً لها رجل يرتدي قميصاً مزهراً بألوانٍ فاقعة ونظراته شاردة خلف نظّارته السميكة، وتقف إلى جانبها امرأة تحمل بين يديها طفلاً يبدو من انتباهها الشديد نحوه أنّه يبكي؛ إنه أنت يوم عمادك، كنت تبكي في حضرة العذراء، فيما أبوك سعيدٌ بك وينتظر دوره في الغناء، لقد كان نجم اليوم بلا منازع، وكعادته دائماً عندما يعتلي المسرح. لم يكن حبّي لتلك الصورة اختياراً، لأنّها الصورة التي جمعتني وأبي.

ومن المخيّلة نضيف بعض الملاحظات التي تتولّد لدينا من المنظر العام، مثل أنّ السماء كانت تُمطر إن ظهرت في الخلف غيومٌ داكنة السواد، أو أن الجوّ كان معتدلاً إن كانت السحب متباعدة ومبعثرة في بحر من الزرقة، ونشعر بالفخر عندما نردّد بعضاً ممّا التقطته مسامعنا من أفواه الكبار، مثل أن أمّي قالت إنّ صورة ما بعينها قد الثقطت عندما كنتُ في بطنها.

أمّا الضيوف فمتشابهون على الدوام رغم تبدّل الوجوه والسنوات، ردودهم تكاد تكون نُسخاً متطابقة بعضها عن بعض، الاستماع باهتمام أولاً ثمّ إبداء بعض الملاحظات الرتيبة مثل الترحّم على مَنْ تظهر على جباههم علامة الصليب، التي تُرسم عادةً بالحبر الأحمر على جباه الموتى، ثمّ تحويل مجرى الكلام بعد ذلك إلى السؤال عن أحوال المدرسة والعلامات التي حصلنا عليها في الامتحانات، ليحظى مَنْ يصادف أن ترتيبه بين العشرة الأوائل بالمدح وقطعٍ من النقود المعدنية هديّةً له، لذلك كنّا نغشّ وندلي بنتائج غير حقيقية عند الإجابة، ونبرّر لأنفسنا ذلك بأنّ الصغار في أيّ مكان يفعلون ذلك أيضاً.

مثل الماء الذي يفتّت الصخر ببطءٍ وإصرار ظلت تلك الصور تؤجّج الرغبة في زيارة الأمكنة المختزنة داخلها وتظهر للناظر دائماً كما الأحلام، حتى أصبح القدوم إلى هنا أمنية سكنت القلب وعجزت مشاغل الحياة الكثيرة عن تشتيتها، رغم أن السنوات الطويلة التي مرّت تحت

القدمين جرفت إلى النسيان رغباتٍ وأمنياتٍ لا تُعد، إلى درجة أنّ شعوراً قويّاً تلبّسني بأنّها رغبة وُجدت لتبقى فقط، ودون أن تجد طريقاً إلى الواقع حتّى نهاية العمر ربّما.

ظلّ ذلك الشعور يراودني حتى وأنا أصعدُ الطائرة، وبقي قويّاً حتى بعد أن حلّقتُ، ولم يتلاشَ إلاّ عندما بدأ الرجل الذي يشاركني المقعد، وكان متشبّثاً بالنظر إلى الخارج عبر النافذة طوال ساعتين، بالهتاف والتصفيق كأنّما به مسٌّ من الحماسة في مباراة كرة قدم: "انظروا إلى ذلك الخيط، إنه الجور، لقد وصلنا إلى مدينة واو يا رفاق".

لو عادت بنا الطائرة أدراجها لكان ذلك أفضل لي، تمنّيتُ ذلك إذ تسرّب إليّ إحساسٌ بالخوف من أنّني على وشك أن أكون غريباً، وفي المدينة التي ظللتُ أنسب إليها نفسي طوال حياتي، وعلى ترابها وبين شوارعها وتحت أشجارها أنفق والدي كلّ سنواته حتّى يوم لقي مصرعه، وذلك بعد شهور قليلة من تنفّس الناس الصعداء إثر سقوط الجنرال عبود بعد العصيان الذي قام به العمّال وطلّاب المدارس والجامعة، الذين خرجوا يطوفون شوارع الخرطوم حاملين أغصان النيم، وقد زاد إصرارهم على رحيل الجنرال بعد أن رأوا رفيقهم "القرشي" يخرّ صريعاً بالرصاص، أو هذا ما قالته لنا معلّمة التاريخ عند زيارتنا للحديقة المسمّاة

بذات الاسم وسط العاصمة، وكنا نشارف على ختام مرحلتنا الابتدائية من الدراسة.

وتلك السنة ذاتها، كانت آخر عهدنا بالمدينة، قامت أمّي المذعورة من الفاجعة يومها، والمحطمة إلى درجة التراب، ودون أن تفكّر مرّتين، برمي نفسها ونحن في حضنها في أوّل قطارٍ يصل إلى المدينة بعد الحادثة مباشرة، كنتُ صغيراً يومها، سنواتي قليلة، وذكرياتي في الدنيا شحيحة: كنتُ أخطو إلى الخامسة من العمر عندما سلّمت مصيرها وأقدارنا، لقضبان السكك الحديد المتّجهة شمالاً إلى الخرطوم، التي لم تعد منها أبداً وعدتُ أنا أمس، ونفسي تسأل كيف كان الشعور زمانذاك، كيف كان الخروج يا ترى؟

كنتُ أخشى أن أستقبل مثل ابنٍ جاء يتقبّل العزاء في والدٍ مات منذ سنوات، لذلك دخل الخوف نفسي عندما طلب قائد الطائرة ربط الأحزمة استعداداً للهبوط، رغم أن نداءه كان إشارة إلى تحقق اللحظة التي ظللتُ أتمنّاها طوال حياتي؛ لحظة أن أكون حيث الحكايات تدور دوماً حول أبي الغائب، رغم الأحساس به يملأ كلّ ركنٍ في المنزل.

ذلك أنه قد ظلّ محسوس الوجود وحاضراً رغم الغياب، بفضل الصورة ذات اللونين الأبيض والأسود التي كانت تشدّ الأقارب كلما زارونا، حتى يبدون أحياناً، كمَنْ ينظرون إلى ذكرى شخص قد فارقهم للتوّ لا شخص ربما لم يبق منه سوى رميم عظام، قبل أن

يسارعوا إلى الحديث عن موهبته الفذة في عزف الجيتار، دون أن ينسوا حياكة مقارنة عجلى بين مهارته ومهارة العازفين الكنغوليين الذين تتردّد أغانيهم في الحفلات ونحتفظ – أسوةً بجميع مَنْ نعرف تقريباً – بتسجيلاتهم وأشرطتهم حسب سنة الصدور لدينا.

وكان الأقارب يميلون دائماً إلى ترجيح كفته عند المقارنة، وحجّتهم جاهزة على الدوام: لو أنه عاش سنوات إضافية لذهب اسمه لا محالة مع الريح في كل اتجاه، مثل اسم فرانكو لومبا وربما أكثر.

كانوا يقولون ذلك بتَحَسُّر.

اليوم الأول يوشك أن ينتهي إذاً، وما تزال المدينة بطيخة مغلقة بالنسبة إليّ وإنْ لم أجد البتّة صعوبةً في التعرّف إلى كاتدرائيتها التي تظهر من أيّ مكان تقريباً، والتلة التي تُقام عليها الاحتفالات ورقصات "النقارة" كل أحد مساءً، واعترافاً منّي بجهلي بتفاصيل المدينة – شوارعها وأزقتها وأحيائها – تعمّدتُ ألّا أحلّ ضيفاً على أيّ أحد من الأقارب الكثيرين، وذلك كيما أكون طليقاً وحرّاً في إشباع نهمي في التجوال والاستكشاف، وبالطريقة التي تعجبني.

في هذا الفندق أشعر بالارتياح لأنني استطيع الخروج ساعة أشاء وأضع قدمي في الاتجاه الذي أريد، دون أن أكون مقيّداً بجدول ما أو التزامات يشاطرني إيّاها آخرون، مثل ضرورة أن أكون حاضراً في المائدة أوقات الوجبات الثلاث، أو الحرص على الاستيقاظ

مبكراً من أجل احتساء شاي الصباح والمشاركة في المجاملات المصاحبة لها. وهذه الأخيرة بالذات تناقض عادةً لا أستطيع التخلي عنها، درجت على اتّباعها دونما توقف أبداً ولا سيما في فترات الإجازة، وهي أن أنهض من الفراش متأخراً، عند العاشرة أو منتصف النهار في مرّات نادرة.

يمكن أن يفسَّر ذلك على أنّه رغبة منّي في عدم زيارة الأقارب، لكنه ليس بالأمر الصحيح لأنني في الحقيقة أرغب بشدة في القيام بذلك، وخاصةً زيارة أولئك الذين أسمع قصصاً وحكايات تُروى عنهم، فضلاً عن الذين طلبت منّي أمّي إيصال تحيّاتها إليهم.

عليّ أن أعترف وأقول إن شعوراً بأن هذه المرّة مختلفة عن غيرها تنتابني، لأنني قد عُرفت طوال حياتي بتجنّب زيارة الأهل والأقارب كلما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، ليس كرهاً لهم بل عن شعورٍ بأنني أكون في وضعٍ حرج جداً، عند كلّ مرّة أقوم فيها بزيارات المجاملة تلك.

أشعر دائماً بأن تلك الونسات مملّة، معادة وثقيلة على القلب إلى درجة أنني أنتبه في بعض الأحيان كالمستيقظ من حلم مرعب إلى كم أنا بعيدٌ عن عوالمها تماماً، الأمر الذي يشكّل دائماً لدى البعض نوعاً من الازدراء و"قلة الأدب" بلغة الكبار.

هذه المرّة مختلفة لأنني في حاجة إلى الاستماع إليهم، حتّى ألملم بعضاً من أيّام أبي المبعثرة دون شكٍ

بين أشتات ذكرياتهم، والتي أخمّن أنها سوف تكون ممتلئة بذكرى مَنْ لقوا حتفهم في حادثة يوم الزفاف، خاصةً أنه لا حديث في المدينة هذه الأيام سوى عن الاستعدادات التي تجري من أجل إحياء ذكرى الحدث، وقد سمعتُ من السائق الذي أقلّني إلى الفندق أن الحكومة تعتزم تحويل المنزل حيث كان العرس ووقعت المجزرة في حيّ "نمرة٣" إلى متحف حتى لا ينسى أحد ما حدث.

انشرح صدري عندما سمعت تلك الأمور، وجدتها فرصة أتتني على طبق من ذهب، لأعرف عن أبي أشياء أبعد من صورته القابعة على الحائط سنوات وسنوات، وربما لأفعل شيئاً من أجله، لِم لا؟... وقد ظللتُ أقول لنفسي كلما نظرتُ إليه وإحساس بأنه يريد التحدّث معي يغمرني: "يوماً ما، عندما أكبر، سوف أجدك يا أبي. كنتُ أقول ذلك دون أن أملك بين يديّ حتّى خريطة واضحة تعينني على الوصول إليه.

رغم أن الدافع ظلّ موجوداً على طول الطريق، إنه ما يمكن أن أسمّيه الآن الحقد الذي ظلّ يلسع قلبي تجاه الأطفال الآخرين، لأنهم مستمتعون بنعمة وجود الأب في حياتهم، إنه ألمٌ لا يستطيع تخيّله إلّا مَن هو مثلي: شخصٌ تفتّحت عيناه على الشعور بنقصان شيءٍ غالٍ ومهمّ، موزّع في كلّ زوايا حياته، وبين فلتات لسان أمّه عندما تضعف وتشعر بالخذلان وتصطدم بقساوة الدنيا.

على مدى أعوام، ومنذ أن أصبح مصيري في يدي، ظللتُ – مثلما هي الحال مع جميع الاستحقاقات المهمة في حياتي – أتردّدُ في القدوم حتى انتبهتُ أخيراً إلى أنه ربما لن تسنح لي سنة مناسبة أكثر من هذه، لأرمي بالتردّد جانباً ولو مرّةً واحدة فأشدّ الرحال جنوباً إلى هنا، وذلك لأن المدير قَبل لأول مرّة أن آخذ الإجازة السنوية في يونيو، بعد أن تأكد تماماً من أن الطبيب الجديد قد أصبح مؤهّلاً وقادراً على إعداد التقرير السنوي، الذي ظلّ قيداً يربطني في المكتب منذ التحاقي بالعمل أعواماً بحيث يفاجئني منتصف العام وأنا منهمكٌ في إعداده، فيما يلحّ المدير ويصرّ دائماً عليّ وحدي، ولا يقبل أن يعدّه أحد غيري.

ولسوء حظي، إنه يرى فيّ وحدي القدرة على تولّي عبئه بما يضمن تدفّق الدعم للمستشفى، الدعم الذي لا يريد التفريط فيه بل ولا يمكنه لأنه يستحيل العمل بدونه، بالنظر إلى أن الحكومة تلتزم فقط بدفع المرتبات وتوفير القليل من الدواء، وتترك باقي المتطلبات على عاتق المديرين الذين عليهم اللهاث خلف المنظمات الأجنبية، ومَنْ ينجح منهم يمكث في منصبه أكثر، وكأنّه نوعٌ من الرشوة للحكومة من أجل المنصب الرفيع.

ونتيجةً لتورّطي في ذلك اللهاث بأمر من المدير طبعاً، صار السفر في منتصف العام واحداً من الأحلام العصيّة بالنسبة لي، التي ظللتُ أتمنّى تحققها بمعجزة

من السماء، وذلك لأن يونيو هو الشهر الذي علينا فيه تسوّل الأجانب ومطاردتهم بتقارير إنجازاتنا السنوية.

لذلك أشعرُ بالحظ الطيّب جداً هذه السنة لأنني استطعتُ الفكاك أخيراً، لأكون هنا بين أشجار المانجو المغسولة أوراقها بالمطر، والبيوت الحجرية الصدئة الأسقف التي تشمخ كأنها شواهد على الزمن، والنسيم الذي يهبّ من "الجور" مع صيحات البجع التي تسكن أعالي الجميزات وأشجار الدليب التي تمتد على طول ضفّته، وأتأمّل المنظر فيما حبّات الندى التي أخذت تتساقط وقت الأصيل تملأ وجهي، فأقول لنفسي أخيراً وصلت إليها فهل سيعرفك أحدٌ إذا ما سمعك تصرخ: أنا أركانجلو مرجان!

السبت ١٣ يونيو ٢٠١٥م

مرّ اليوم بهدوءٍ ورتابة، لم أفعل شيئاً يستحق الذكر أو بالأصحّ أنجزتُ بضعة أمورٍ صغيرة، بدافع من الملل ورغبةً في تزجية الوقت. في البداية قمتُ بترتيب الغرفة التي سأمكث بها حتى أستقرّ على رأي بشأنها، استمراراً فيها أو اتّجاهاً إلى غيرها.

وقد رضيتُ بها رغم الأشياء الكثيرة التي تنقصها، لبعض الأمور التي تُميّز المكان عن بقيّة الفنادق التي طفتُ عليها، قبل أن أستقرّ عليه كخيار مناسب حتى الآن على الأقلّ، والأروع فيه ثلاث صفات اجتمعت عليه، أولاً أنه يتوسّط قلب المدينة ما يعني اختصار المسافة إلى أيّ اتّجاه، ثانياً أن الهواء فيه لطيفٌ ورائع، ثالثاً وهو الأحبّ إليّ بينها جميعاً، النظر إلى الأشجار التي تحيط به من كلّ ناحية وتدخل السكينة في النفس، ولا أبوح بسرّ إن قلتُ إنّ كل ذلك مقابل سعر مناسب جداً إن لم أقل زهيد.

حرصتُ على أن أجعل من ترتيب الغرفة عملاً بطيئاً متعمّداً الإطالة فيه قدر ما أستطيع، لأنّه السبت، ما يعني الفراغ بالنسبة إلى شخصٍ مثلي، ما يزال يتلمّس مواضع خطواته في شوارع لا يعرفها، ولا شيء بالتالي يمكنه القيام به سوى الجلوس في انتظار الليل، حتّى يرى كيف يقضي الناس نهاية أسبوعهم، هل بهدوء الخرطوم أم عربدة جوبا اللذيذة.

رتّبتُ الملابس أولاً بكلّ هدوءٍ وتكاسل ممكن، متردّداً في الاختيار بين الأرفف، هل البناطيل في الأعلى أم القمصان قبل أن أستقرّ على العكس، توصّلت إلى تلك الصيغة من الترتيب حسماً للجدل بعد أن ظلّ الذعر ينتابني من أن الملابس لن تكون آمنة في الدولاب، الذي هو عبارة عن قطع من ألواحِ "الفورمايكا" وُضعت على عجلٍ في تجويف مستطيل على الحائط، بُعثر في كلّ طبقة منها كبسولات بيضاء تخيّلتُ أنّها قد تكون سمّاً للفئران، الشيء الذي أكّد مخاوفي أكثر.

قضيتُ ساعاتٍ طويلة على ذلك المنوال حتى أخذ الضوء في التلاشي، وبدأ الظلام يزحف إلى الغرفة مع رفرفة أجنحة كثيرة ووقوقاتٍ في أعلى شجرة الكافور الوحيدة في البناء، عند ذلك علمتُ أنّ الشمس قد غربت منذ فترة ومضى الزمن وجرى كما يُقال، وتذكّرتُ أن شيئاً واحداً بقي لي القيام به وهو تنظيم وترتيب الدرج الذي سوف أستخدمه من أجل التدوين، فوضعتُ بعجلة مجموعة من الأقلام الملوّنة التي اشتريتها من المطار أعلى الطاولة، وقرّرتُ أن أشتري لنفسي شمعة.

وجدتُ تحت الظلام طريقي إلى زرّ المصباح المعلق على الحائط، ثمّ أخرجتُ المذياع الصغير حتّى أعرف ماذا يحدث في العالم، لكنّي مللتُ سريعاً الأخبار المكرّرة عن داعش، ماذا تفعل وماذا تقول، أمام أنغام موسيقى كنغولية تسرّبت إلى أذني من بعيد، أغرتني بأن أرمي بالمذياع على الفراش دون إغلاقه حتّى،

وذلك من أجل تتبّعها وقد غمرتني بالذكريات، فهي أصوات ذات الفنّانين الذين تملأ تسجيلاتهم الأدراج في منزل طفولتنا بالخرطوم.

جرّتني الموسيقى إلى شارع يفضي إلى النهر، لكنّني قرّرتُ العودة مخافة أن أضيع، إذا ما مضيتُ في الطريق وحدي دون دليل إلّا النسيم العليل الذي أخذ يزداد برودةً ورقة كلما تقدمتُ في المشي. في طريق العودة برقت في رأسي خاطرة: هذه الإجازة فرصة كيما أتعلم السباحة.

"ربّما عليّ أن أمتلك بعض الجرأة للبتّ في مثل تلك الخواطر التي ترن في رأسي."

دوّنت الجملة أعلاه بقلم "بيك" أحمر كما أفعل دائماً عندما أشعر بالتحدّي يربض أمامي، وقد قررتُ أن أحتفظ بها للأيام وأنتظر ما سوف يحدث. بعد ذلك أخرجتُ دفتري لأرى من أين عليّ أن أبدأ عندما أنزل في شوارع المدينة، فكانت أول جملة تقعُ عليها عيني – ويا للعجب – هي التالية:

"الموسيقى ساحرة وتغوي حتّى الحجر".

كأنّها قيلت في وصف حالتي أنا, حدّثتُ نفسي، إذ تذكرتها على الفور دون أن أكمل قراءتها حتّى. إنها الجملة التي طالما تفوّه بها الأهل عند وصفهم موسيقى أبي، بل كانوا ينسبونها إليه نفسه. يقولون إنه كان يبدأ بها جميع حفلاته.

وجدتُ في الأمر نوعاً من الفأل الحسن أن تنطبق عليّ مقولته من يومي الأوّل، وأنا أتذكرُ كيف جرفتني الألحان قبل وقت قليل فقط، جهة النهر دون وعي مثلما يحدث مع الفأر الذي يمشي إلى المصيدة مخموراً برائحة الطعام ولا يستيقظ منها إلّا بعد أن يكون الفخّ قد أمسك بخناقه.

لم يكن ذلك في الواقع ما كنتُ أبحث عنه في فوضى الدفتر ذي الصفحات المئة، لكنه مع ذلك منحني مزيداً من المزاج الحسن لأتابع البحث، حتى وقعتُ أخيراً على ما أريد أسفل صفحة مليئة بملاحظات طبّية عن مريضٍ كان قد حيّرني أمره جداً.

خطأ غير مقصودٍ منّي هو ما جعلني أبحث لوقتٍ أطول من اللازم، ذلك أنّني ظللتُ أبحث عن الصفحة التي دوّنتُ فيها الحلم الذي طالما عذبني بين الملاحظات واليوميات التي كتبتها بالحبر الأحمر دلالةً على أهمّيتها حوالى ساعة تقريباً، قبل أن أتذكر أنني لن أجده بينها أبداً، وذلك ببساطة شديدة لأنه في الليلة التي استيقظتُ فيها فزعاً من النوم لم أجد أمامي على الطاولة إلا قلم رصاص فقط، لأدوّن به الحلم الذي أيقظني أكثر من مرّة وظلّ على ذات الفعل لليالٍ متعدّدة، وحيّرتني في أمره مناقضته التامّة لاعتقادٍ كنتُ أحمله بأن الأحلام لا تتكرّر أبداً بذات التفاصيل، كما حدث معه دون حذفٍ أو زيادة.

أقفُ وسط دغل كثيف، تحت مطرٍ يهطل بعنف، ولا أستطيع الحراك نحو رجل كان يناديني إليه، صارخاً بأن "مدَّ يديك إليّ لتنجو يا بنيّ، وعندما أكاد أمسك بيده الممدودة يختفي فأجد نفسي وحيداً، وسط فراغٍ يطوّقني من كلّ اتّجاه حيث لا شجر ولا مطر ولا حتّى أرض لأقف عليها، فقط فراغ وصدى صوتي يرتدُّ نحوي، لأستيقظ في كلّ مرّة في وسط الليل فأبقى دون نوم حتى ينبلج الصبح.

لم أكن بحاجة إلى موهبة خاصة لأعلم أن الرجل أبي، وذلك لأن له نفس الوجه الذي ظللتُ أراه منذ الصغر، في الأحلام المتقطعة التي أكون فيها مع العائلة في مشوار ما، وهو نفسه الذي انطبع في مخيّلتنا من صوره الفوتوغرافية بأحجامها المختلفة، لكن تكرّر الحلم نفسه وكما هو، لا تفسير بقيّة أجزائه، هو ما كان يقضّ مضجعي، بل إنّه غيّر من عاداتي بحيث صار النعاس يداهمني نهاراً تعويضاً عن سهر الليل وسهده.

وتباينت آراء مَنْ حاولتُ أخذ الراحة بسؤالهم عن حالتي، في المنزل قالت أمّي: "صلِّ، إنّها فرصة لتعود إلى طريق الربّ"، وقال زميل يحبّ فرويد ويعتبره نبيّاً: "المخاوف التي تحاول حلّها بالهروب نهاراً تصطادك ليلاً".

بالطبع رفضتُ في البداية افتراضه بأنّ ثمّة أموراً ربّما أهرب منها تقف وراء تلك الأحلام، لكن كان عليّ في نهاية المطاف بعد ذلك أن أقبل أنّه قد يكون على

صواب، ربّما دفعتني إلى ذلك الرغبةُ الملحّة في الحصول على راحة منها، وقد صارت مع مرور الوقت كوابيس تخلخل إيقاع حياتي وترمي بها في اضطراب، أو على الأقل هذا ما كان عليّ أن أخلص إليه من ملاحظة أن البعض مَن المقرّبين قد أصبح يسألني أكثر من مرة في اليوم: "هل أنت بخير؟".

لا شك في أنّ الوقوع في مثل تلك الحالة، عاجلاً أو آجلاً، سيقود المرء في النهاية إلى أن يسأل نفسه: "هل أنا بخير؟". وهذا ما كان منّي بالفعل لأجد أنني لستُ بخيرٍ أبداً، عند جرد الحساب لتلك الفترة المليئة بالكابوس، ثلاثة إنذارات شفهيّة من المدير وشكاوى من العيادة التي أعمل فيها مساءً نتيجة عدم انتظامي في الحضور, ما رسّخ لدى الكثيرين أنها قد أُغلقت، "سوف نضطرُّ إلى الإغلاق إن واصلت التصرّف بهذه الطريقة." خاطبني مالك العيادة ذات يوم لأندم بعد انصرافي عنه على الطريقة التي رددتُ بها عليه: "افعل ما تشاء!".

لقد كنتُ متوتّراً من غير سببٍ ظاهر أو مبرّر مقبول، وحجم الاندهاش الذي ظهر في عينيه لازمني طوال ما بقي من اليوم، لأفكّر جدّياً في نفسي وأنا أتخيّله يعاتبني قائلاً "أولست ذلك الرزين الذي لا يغضب لتوافه الأمور؟ فماذا دهاك يا رجل؟". وصرتُ أسأل نفسي: ماذا دهاني لأكون مشتّتاً على ذلك النحو الذي أصبحته، ولأعود هكذا إلى ما قاله زميلي الفرويدي الهوى، وأفكّر جدياً في الشيء الذي ربّما ظللتُ أعالجه بالتجاهل أو

الهرب نهاراً، حتّى إن كان تافهاً في عيني، متذكّراً أنه قال أيضاً في ذلك الحوار العابر أوان الفطور في كافتيريا المستشفى: "الحلم يصنع مادّته حتّى من الأمور التافهة جداً، كأمنية ركنّاها جانباً ذات يوم يا صديقي."

بحثاً وتقليباً في ذاكرتي لم أجد أمنية قد أكون ركنتها جانباً، وسنة وراء أُخرى لا أشهر فقط، سوى واحدة تلبّستني مرّة، وهي أن أرمي باقة وردٍ على قبر أبي، لكنّها تلاشت بعدما كبرتُ قليلاً، وعلمتُ أنّه لم يكن محظوظاً ليحظى بقبر مثل كثيرين غيره، الذين أُطلق عليهم من باب بثّ الأمل في نفوس ذويهم زوراً، مسمّى المفقودين الذي استمر فترة قصيرة، أشهراً ربّما، قبل أن يصبح الفقد دائماً، وموتاً مؤكّداً بمرور الوقت.

وهكذا توصّلتُ إلى أنّ تلك الأمنية هي التي صعدت لتعذبني وتحاول أن تضعني أمام خيار أن أسعى خلفها، كما فسَرتُ اليد الممدودة، وهو الأمر الذي وافقني عليه الزميل، وهو يضيف غير واثقٍ من كلامه هذه المرة: "ربما من حسن حظك أنه أفلت يدك، لأنّه يُقال إنّ مَنْ يلبّي نداء ميت في الحلم لا يستيقظ أبداً." بعد ذلك، وكأنه خاف أن آخذ الامر جدّياً، تراجع وهو يتعمّد الضحك فيما كان يربّت على كتفي قائلاً "إنها واحدة من خزعبلات الجدّات التي طالما آمنّا بها في الصغر".

رسمتُ دائرة كبيرة بالقلم الأحمر حول الحلم، حتّى أرجع إليه بسهولة أكثر عندما أحتاج إليه مرّةً أُخرى،

وأنا أحسّ بأنه قد أصبح في رأسي خريطة واضحة عمّا أريده، على الأقل في الأيام القليلة المقبلة، رغم أنني لا أعرف بماذا تنتهي بالضبط فإنّه يشمل على كل حال إصراراً على ملاحقة تلك الأمنية.

الاثنين ١٥ يونيو ٢٠١٥م

صار الجوّ صحواً، ضمّخه نسيمٌ عليل، وبين قطع الغيم المتفرّق لاح قوسُ قزح جميل، وحول نوار الباتوندا المتسلّق على الجدار، حلقت فراشاتٌ زاهية الألوان، وفي الخارج ارتفع خرير الماء من جدول قريب، أما أنا فاستيقظتُ على برد خفيف تسلل من النافذة التي نسيتُ إغلاقها.

المطر الذي هطل طوال الليل خلّف مزاجاً رائقاً، وأزال عنّي الذعر الذي عشته من دويّ الرعود الشديدة، حيث كنت أشعرُ مع كلّ دوي بأنّ طبلة أُذني سوف تنثقب، فيما قلبي يكاد ينقذف من قفصه خارجاً، فأتوهّم مع كلّ برق يشق ظلام السماء أنّ الصاعقة أخذت حياة شخص ما.

تدفعني إلى ذلك الوهم قصصٌ سمعتها عن الصاعقة هنا، ومجملها تتلخص في نقطة مزعجة، وهي أنها تقتل أكثر من أي شيءٍ آخر، لذلك يبقى التفكير في امتلاك جهاز مقاوم لها، الشيء الأهم الذي يسبق التفكير حتى في حساب أكلاف البناء نفسه، وتجذر الخوف منها يظهر جلياً في أن الناس يحلفون بها عوضاً عن الله نفسه.

ويقولون إنها سلاح السحرة المفضّل، يرسلونها فتفتك أسرع من أيّ تعويذة أخرى، ولسببٍ ما غير معروف لأحد فإنها تصيب الغرباء على المدينة في أكثر الحالات، وقد سمعتُ قصّة الرجل الذي خطفته الصاعقة في أول يومٍ له يعيد الجميع حكيه بذهول وكأنه للتوّ قد حدث، وهي كما سمعتها من النادل الذي أبديث له خوفي من شدّة دويّ الرعد، وطرحتُ عليه السؤال عمّا إذا كانت ليلة أمس استثناءً، أم يحدث الأمر على ذلك المنوال دائماً مع كلّ مطرٍ يهطل، قال لي بعد أن أجابني: لا عليك، نم كما تريد فلدينا مانع صواعق، وإنْ كان خوفك يبدو مبرّراً مثل أيّ زائر، فمَنْ يدري فربما ثرثرة أحدهم بقصّة ذلك الرجل الغريب لك هي السبب.

– قصة الرجل الغريب؟!

– لا تقل لي إنّك لم تسمع بها؟

تساءل إذ لاحظ الاندهاش على وجهي، ثمّ واصل الكلام وقد طفت على وجهه طبقة من الحزن قائلاً:

مَنْ يستطيع أن ينسى ذلك؟ لا أظنّ أنّ ثمّة مَنْ يستطيع. بدأ الحكاية بأنه قد حدث في ظهيرة يومٍ ما من شهر أبريل ذات سنة بعيدة، أن ظهر في المدينة شابٌ عشرينيّ فائق الوسامة، ما إن خرج إلى السوق من أجل بعض الأمور حتى سرى خبر جماله

المدهش مثل النار في الهشيم، وبغتةً صارت أمنية كلّ فتاة أن تراه وتحظى به.

واتّفق أن ذلك اليوم كان سبتاً فحضر مساءً إلى حلقة الرقص، وهناك صار نوعاً من الجنون الذي يمشي على قدمين بالنسبة إلى كل عينٍ رأته، فكانت الفتيات خلفه كما النحل ملاحقةً للرحيق فيما تحوّل الفتيان إلى غيرة وحسد، أما هو فكان ودوداً مع الجميع كأنّه من طينة أولئك الذين جُبلوا على برودٍ في الإقبال على ترف الحياة، وهكذا استطاع التملّص منهنّ جميعاً دون أن يعد إحداهنّ بشيء.

وحدث أنّه عندما كان في منتصف الطريق إلى سكنه بدأ المطر ينهمر، فاضطرّ إلى الاحتماء بمظلّة كان يحتمي بها الكثيرون ممّن تقطّعت بهم السبل، لكن بعد أن اطمأنّ إلى أنّه في مأمن من البلل، فوجئ الجميع بالصاعقة تأخذه من بينهم، لترمي به على الجانب الآخر من الشارع فيضرب رأسه عمود كهرباء ويموت.

في اليوم التالي لم يكن من حديثٍ سواه، إلى درجة أن طلب القسّ من المؤمنين الصلاة لأجل روحه، إذ علم أنه كان ابن أحد "الأكابر" الذين يرسلون الهبات ويدفعون العشور، لكنه تربّى ونشأ بعيداً وما جاء إلّا زيارةً للأسرة، ليأخذ بركتها

بعدما أكمل تعليمه في الخارج، وأصبح متهيّئاً للانخراط في بحر الحياة بكلِّ تفاؤل وحماسة.

لديّ ما أخافه إذاً فأنا في النهاية غريب أو قُل نصفه، إذ إنه رغم أن مشيمتي مدفونة في مكانٍ ما هنا: تحت جذع شجرة، أوعند حافة صخرة غارقة في الوحدة، أو في حديقة المنزل ربما. وتنعكس غربتي في وجوه مَنْ ألتقيهم، فلهجتي عندما أتحدث تجعل الناس يلتفتون إليّ كأنهم يقولون: إذاً أنت غريب. أما وقد ظهرت الشمس أخيراً فالحمد لله أنّ واحدة من تلك الصواعق لم تسقط عليّ، ونجوتُ لأرى الصباح جميلاً كأنّه قطعة من الجنّة، كما كنّا نكتب في مادّة التعبير، ولأنفض الخوف عنّي وأترك قدميّ تتسكّعان قليلاً.

وما إن نزلتُ إلى الشارع حتى تبيّن لي أنّ المطر لم يمنع أحداً عن الخروج باستثنائي ربما. كانت الشوارع تعجّ بالنمل البشري الذاهب في كلّ اتّجاه. أناس يلقون التحيّة بعضهم على بعض، يتوقفون لفترات قصيرة ثم يواصلون، بعضهم يكتفي بالتلويح من الجانب الآخر، ويصرّ آخرون على أن يعبروا الطريق ليسلّموا كفّاً بكفّ.

كان القليل منهم فقط يحملون مظلّات المطر، لكنّهم جميعاً كانوا يتصرّفون كأنّ المطر عيد، وسريعاً عرفتُ العيد الذي به يحتفلون، وتحت المطر الذي عادةً ما يعطّل لدينا أيّ حركة ونشاط: إنّهم سعداء لأنّ المرتبات

قد أتت بعد غيبة أكثر من ثلاثة أشهر، ظلوا يعملون خلالها لدى الحكومة مجّاناً.

وسمعتُ أيضاً أنّ السوق سوف ينتعش لبضعة أيّام، قبل أن يعود الركود إليه مرّة أُخرى، وهذه هي الحال منذ أن اندلعت الحرب، فإنّ الجميع يخرجون فور سماعهم، ولو محض شائعة، عن وصول المرتّبات، مهما يكن الطقس، سواء أكانت تمطر أم لا.

علمتُ تلك الأمور من بائع الصحف في الكشك القريب من الفندق، وقد ثرثر لي كثيراً عن الشائعات الرائجة بأنّ الرئيس ربّما لا يزور المدينة كما كان يتوقع، وذلك خوفاً على حياته من المتمرّدين الذين يُقال إنّ بعضهم قد تسلّل إلى الداخل من الغابات القريبة.

ربما ثرثر لي بتلك الألفة لأني أعطيتُه مبلغاً جيداً من النقود، حتّى يحتفظ لي يومياً بنسخ من الصحف إنْ لم أجد فرصة المرور به في حال انشغالي. وقد أصبحت عادة مراكمة الصحف من أجل قراءتها دفعةً واحدة في أوقات الفراغ، لا تفارقني أينما ذهبت، ورغم أنّني تعلمتها تحت ضغط العمل، أصبحتُ أجد فيها لذةً تفوق الاطلاع على الصحف يوم صدورها.

عدتُ متأخراً بعد أن حصلتُ على مفاجأة لم أكن أتوقّعها، ومعاً أنا وهو تسكّعنا حتى ساعات متأخرة من الليل، حدث الأمر كله بسرعة: في طريقي إلى الفندق سمعتُ شخصاً ينادي باسمي، تجاهلتُ الأمر لاعتقادِ

راسخ لديّ بأن اسمي سهل، ويمكنه بالتالي أن يتشابه مع أيّ اسم آخر، وتماديتُ في "الطناش" لأنه منتشرٌ هنا مثل الوباء، حيث وجدتُ في المطار وحده أكثر من ثلاثة أشخاص يحملونه، لكنّ النداء استمرّ واقترب الصوت أكثر وأكثر دون أن ألتفت حتى صمت أخيراً، لأسمع بدلاً منه همساً طفولياً ينقر في أذني:

– هل سرقت السُكر من مطبخ أمك؟

ما هذا يا إلهي؟ هل أنا أهلوس؟ فتلك الجملة قد قفزت من أعماق طفولتي البعيدة، إنها شيفرةٌ كنّا نستخدمها في المدرسة نحن ثلة الأولاد الستة كما كان يُطلق علينا وقتذاك، وقد وجدنا أنفسنا معاً لا يفارق بعضنا بعضاً، حيث كان يجمعنا السكن في الحيّ وسلوك الطريق ذاته إلى المدرسة، والهرب من الحصص الأخيرة من أجل اللعب بالدرّاجات المستأجرة، والتسلّل إلى النهر الذي لم أخاطر قطّ بالنزول إلى مائه، خوف أن أكون ضحيّةً من ضحايا حوادث الغرق التي تكثر مع اقتراب عطلة الصيف لدينا.

كنا نكتب الشيفرة في قصاصات ورقيّة نتبادلها أثناء الحصص، نُخبر عبرها أحدنا الآخر أن وقت الهروب قد أتى، وقد بقيت طيّ الاستخدام طوال دراستنا في المرحلة الابتدائية رغم أنّ الثلة لم تستمرّ كما هي، انكمشت وتقلصت.

هاجر أحدنا مع أسرته فانقطع خبره بعد مدّة من الوقت ظللنا نسمع خلالها عنه، وتحوّل آخر إلى مدرسة أخرى لأنّ ذويه قد رحلوا إلى حيّ بعيد، القدوم منه والعودة إليه يتكلّفان أكثر من باص ونقوداً لا يستطيعون تدبيرها يوميّاً. أمّا ثالثنا فغاب عن المدرسة ذات يوم ولم يأتِ ثانيةً أبداً، لم نعرف سبباً وراء ذلك ولو حتى مجرّد شائعة نستطيع قولها لمرشد الصفّ الذي أخذ يسألنا لأكثر من شهر، حتى كفّ وحده عن ذلك، كان اسم الغائب "تعبان" وها هو يظهر بغتةً وبنفس الطريقة.

لم يضيّع وقتاً بإرهاق ذاكرتي في محاولة يائسة في التذكر، مثلما يفعل الكثيرون عندما يجدونك بعد سنوات طويلة، فيطرحون عليك سؤالاً يطفح بالغباء مثل: هل نسيتني؟ وذلك قصد الإحراج لا التذكير رغم أن مناسبة عابرة، كمقاسمة مقعد يتيم ساعة الذروة في باص مكتظ، قد تكون هي كلّ ما جمع بينكما ولا شيء أكثر.

– أنا تعبان.

عرّف بنفسه مباشرةً.

– تعبان التعبان!

هتفتُ غير مصدّق.

– تعبان الجعان.

هتف ضاحكاً.

الهتافات التي تلفّظنا بها كالأطفال، عادت بنا إلى الوراء بعيداً وفرحاً، وكانت في ما مضى تجعله شعلة من الغضب الملتهب، فيشرع في مطاردتنا ورمينا بالحجارة وكلّ ما يجده أمامه، أغلب تلك المطاردات كانت تنتهي بإصابة أحدنا، لكن سرعان ما يزول الألم فنعيد الكرّة من جديد، وقد نسينا كم هو خطِرٌ العبث معه.

كان فائق المهارة في رمي الحجارة، لذلك كنا نستعين به في صيد الطيور، مقابل أن يكون له نصيب الأسد لكنّه كان لا يكفّ عن التذمّر بأنّه يستحقّ أكثر، قبل أن يعود فيتنازل في النهاية لأنّه يحتاج إلى مساعدتنا له في مشاجراته الكثيرة، التي جعلته يكتسب بعض العلامات الفارقة على وجهه، والجَلد أمام الطابور الصباحي في الأوقات التي يكون فيها تعيس الحظ، وما أكثرها من أوقات!

إلى بارٍ قريب على مرمى حجر من السوق جرّني، وهناك استأنف المطر هطله من جديد لكن هذه المرّة رذاذاً ناعماً ورقيق الملمس. طلب لنفسه بيرة مثلجة وكوباً من عصير الأفوكادو لي، لأنّ اضطراب المعدة يمنعني من احتساء الكحول ومتعة التدخين، ونتيجة ذلك أصبحت لا أملك ترف الاختيار.

جلسنا بالقرب من نافذة تكشف كامل المشهد في الخارج، وهناك تدفّق شلّال الذكريات: أخبرني أنه كان

يمرّ بين الصفوف الطويلة في صالة الوصول الوحيدة، عندما رآني بين تلك الصفوف المتثائبة مثل مشي السلحفاة، قال لنفسه لا بدّ من أنني قد التقيتُ بذلك الشخص الذي يتحرّك بكسل ولامبالاة في مكان ما، وازداد يقيناً بعد ذلك من صدق حدسه عندما قرأ اسمي كاملاً بين الأسماء، عند ذلك فقط تذكّر كلّ شيء.

لكنه تركني أمضي دون سؤال لأنه كان يخطط لزيارتي لاحقاً حيث أقيم، لو لم يعثر عليّ بالصدفة اليوم، فقد تأكد من سائق التاكسي الذي أقلني أنني سأكون بأمان وفي مكان مناسب، ثمّ أضاف بقهقهة خفيفة: الكلّ هنا مخبرون ومجنّدون وضحايا!

وفسّر كلامه أكثر عندما لاحظ شيئاً من الحيرة في وجهي، بإخباري أنه قد التحق باستخبارات الجيش بدلاً من شقيقه، الذي اختفى فترة من الزمن قيل بعدها إنه قد مات.

وُرِّث الوظيفة حتى يتمكّن من تولي مسؤولية أطفال المرحوم، كما أن عليه مواصلة الإنجاب عوضاً عنه وصولاً إلى عددٍ معقول، وبعد ذلك فقط بإمكانه أن يكون حرّاً في الزواج لنفسه هو، أو البقاء عازباً إلى نهاية حياته إذا أراد، ولا يمكنه الاختيار لأنه وحده مَنْ بقي، ورفضه تولّي المهمّة الثقيلة يعني أن تصبّ الأسرة لعنتها عليه، ما يعني العزلة والازدراء. تكلّم بمرارة وحُرقة ثمّ غيّر مجرى الحديث ليسألني عن أمّي.

وقد حرص عند السؤال عنها على إبداء ملاحظة حذرة، فيها قدرٌ كبير من مراعاة مشاعري، تذكّر كيف كانت النسوة الغيورات منها يثرثرن قائلات: "لا يمكن لامرأة بهذا الجمال أن تظلّ وحدها، لا بدّ من أن جِنّياً يعيش معها."

أمسكنا ببطنينا من شدّة الضحك، ولم ننتبه إلى أنّ جميع مَنْ كانوا في المكان، قد أخذوا يختلسون النظر إلينا بحيرة.

أخبرته أنّها بخير وأضفتُ:

– يبدو أنّ جِنّيَّها ما يزال يحبّها رغم أمراض الكبر التي أخذت تتسرّب إلى بدنها!

بعد أن علم أنها تعاني من ارتفاع الضغط والسكّري، بالإضافة إلى ضعف النظر، واساني بأن ذكر الأمراض نفسها عند الحديث عن أمّه، ثم علّق على تشابه الأقدار تلك بأنّ الإنسان مع اقتراب نهايته يعود ضعيفاً مثلما كان في بداية المشوار، وأضاف بصوت يطفح استسلاماً:

– القدر عاصفة لا تُصدّ، فقط ننحني لها، لنرى بعد مرورها مَنْ بقي ومَنْ مضى.

غيّرتُ مجرى الحديث وطرحتُ السؤال الذي ظلّ دون إجابة سنوات طويلة:

– لماذا اختفيت دون أن تترك أثراً وبغتةً بتلك الطريقة؟...

لم يجب، وترك الصمت يسود فترة، ثمّ طلب أن نتمشّى قليلاً، لأنّ المطر قد توقف والجوع يقرص معدته.

أثناء مشينا صوب مشاوي لحوم الضأن التي تقدّم الشيّة بـ"أم مرين" وسلطة الخضار، فتح قلبه مجيباً عن السؤال الذي تجاهلتُ إعادة طرحه، مثلما أفعل دائماً مع الأسئلة التي أعتقد أنها انفلتت بطريقة غير لائقة، لتزرع الشجن في قلوب الآخرين كما حدث لي معه.

– في ذلك اليوم الحارّ من صيف سنتنا الرابعة في المدرسة!

بدأ يتكلم مجيباً لكنّه توقف برهةً من الوقت، قبل أن يعود ليواصل حديثه، ودمعة رقيقة تلمع في زاويتي عينيه...

عدتُ إلى المنزل بعدما افترقنا كالعادة، عند وصولي وجدتُ الأوضاع منقلبة عكس بقيّة الأيام، لم تكن أمّي "تعوس الكِسرة" كعادتها في مثل تلك الساعة من اليوم، حيث اعتدتُ أن تسألني عمّا إن كنتُ جائعاً؟ قبل أن ترمي لي "بطَرَقات الكِسرة" التي فشلت في الاستواء، وتطلب منّي قضمها ريثما يحين وقت الغداء، كانت تعجنها بالبصل والملح أو بالسكّر في الأيّام التي أكون فيها محظوظاً.

كان المنزل صامتاً، الغرف مهجورة كأنّها ليست الأمكنة نفسها التي تركنا فيها أسرّتنا صباحاً، الملاءات والشراشف مبعثرة، وكان ثمّة رجل غريب يلقي التوجيهات وأمّي تطيعه.

لم أرتح للرجل لكنّ أخي الأكبر كان سعيداً، وهو يمشي خلفه مثل ظلّه، فسَرتُ فرح أخي العارم بوجود سيّارة تنتظر في الخارج، فقد كان محبّاً للسيّارات، كانت كلّ دنياه أثناء اللعب بالطين أو الشخبطة في كرّاسات الرسم، كان يحلم بأن يصير سائقاً عندما يكبر، الأمنية التي يُزجر بسببها كلما أفصح عنها، لأنها تخالف الأمنيات التي يريد الكبار جميعاً سماعها: أن تصبح طبيباً، أو مهندساً، أو قاضياً في الحدّ الأدنى.

قالت والدتي التي رأت التوجّس في وجهي إنّ الرجل جدّي، وما جاء إلّا من أجل أخذنا معه حتّى نرى جدّتي المريضة، ولم تنسَ أن تذكر أنّ أبي سوف يلحق بنا.

استغربتُ من السرعة التي كان علينا السفر بها، لأنّ أمّي دائماً ما تخطّط ببطء لأيّ مشوار تودّ أخذنا إليه، حتى لو كان ذلك المشوار هو الذهاب إلى حديقة الحيوان أيّام العطل، لكن فكرة أنّ جدّتنا ترقد طريحة الفراش بسبب المرض،

جعلتني أشعر بأن تلك السرعة مبرّرة، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أسمع فيها أنّ لديّ جدّة.

وهكذا سافرنا دون عودة ولم يأتِ أبي خلفنا أبداً، كذلك لم تكن جدّتي مريضة، بل كانت قويّة ونشيطة كحَمَلٍ في صباح خريف مطير. لقد خُدِعنا وتكشّف لنا السبب وراء ذلك بعد سنوات: تزوّجت أمّي دون رضى أسرتها، هربت مع أبي، لكنّ الأسرة ألصقت التهمة بوالدي، زاعمة أنّه غرّر بها لصغر سنّها، وأصبحت الحقيقة المتداولة هي أنّه خطفها، ظلّ جدّي صامتاً عن القيام بأيّ فعل حتّى جاء ذلك اليوم الذي سافر فيه من أجل جلبنا، وأخذنا جميعاً.

وقد برّرَ الأمر بأنّ والده جاء في المنام وطلب منه القيام بذلك، أخبر أمّي أنّها حرّة في الزاوج بأيّ شخص تريد إلّا أبي، لأنّها يوم تفعل ذلك ولو بطريقة سرّية، فإنّ لعنة الجدّ سوف تلحق بها، ربّما يموت أطفالها إن لم تمت هي.

ونتيجة ذلك ظللنا اثنين فقط، لأنّ أمي لم تشأ أن تتزوّج أبداً، وكانت تقول كلّما شُجّعت على الإقدام على ذلك:

– لا أريد خلط الأولاد.

ربّما كانت تنتظر أن يُغيّر جدّي من رأيه، وهو الأمر الذي لم يحدث وحتى لو حدث فإنّ الوقت

قد فات كما أظن، بعدما بلغت هي من الكبر ما يمكن تخمينه من طول السنوات التي انصرمت منذ افترقنا.

هكذا سارت الأمور بدل أن نلتقي في اليوم التالي في المدرسة لنواصل مشاغباتنا وشجاراتنا ومطاردتنا، ها نحن نلتقي بعد أكثر من عشرين سنة، وأين؟ في مدينةٍ أخرى وعمرٍ آخر يا أركانجلو.

حزنتُ لما جرى معه لكنني أشعرُ بالانشراح لأنّني وجدتُ شخصاً يمكنني الاعتماد عليه، فرغم عدم بلوغ العلاقة في مرحلتها الجديدة هذه وثوق أحدنا بالآخر بعد، فالأمر يبدو جيّداً بالنسبة لي الآن على الأقل، لأنّ لدينا من الذكريات المشتركة ما قد يدفع أحدنا ليحتاج إلى الآخر.

وأتحرّق شوقاً لحضور حلقة الرقص السنوي التي دعاني إليها، والتي سوف تُقام هذه السنة أبكَرَ من المعتاد، يوم الخميس المقبل، بدلاً من منتصف أغسطس كما هي الحال دائماً، وأضاف بعدما سمع منّي عن مصير والدي الذي يؤرّق فؤادي وما جئتُ إلّا لأجله:

– أوه يا لك من مسكين، أرجوك أن تأتي، فستجد هناك مَنْ لديه ما قد يخفف حملك!

لا أدري بالضبط ماذا كان يقصد بذلك... هل كان يقصد مثلاً أنّ شخصاً ما هناك، يحمل أخباراً بعينها قد

تساعدني في الطريق إلى أبي مثلاً، أو يحمل معه حكايةً ما قد أكون سعيداً لمجرّد سماعها حتّى. لكنني مع ذلك كنتُ متحمّساً ومتشوّقاً رغم أن السبب يبدو شيئاً بعيداً عن احتمالات تلك الأجوبة جميعاً، لكنه مع ذلك أمر عاطفي نوعاً ما بالنسبة إليّ. إنّه ذكرى منزلنا الأول والأخير في المدينة قبل أن نسافر منها دون رجعة.

ورغم أن عهدي بها سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، تكوّنت لديّ فكرة جيدة ببعض من تفاصيل ذلك المنزل، تجعلني أتذكّر ولو بضبابية وتشوّش أنّه كان مبنى ذا جدران عالية، ويقع أسفل التلة حيث تُقام حلقات الرقص ويُشرع بابه الرئيسي مباشرة على الميدان حيث يجتمع الراقصون من كلّ الأنحاء للرقص أسبوعياً، ويستمرّون في ذلك حتى ساعات متأخرة من الليل في مواسم الأعياد، فيخرج بنا الكبار للتفرّج والتنزّه وسط الحلقات المختلفة، وكانت أمّي تحتجّ على ذلك بأنّه سينتهي بكوابيس تعذّبنا في المنام، لكنّ أبي كان – كما علمتُ – ينجح في كلّ مرّة في إقناعها بأنّ شيئاً من هذا لن يحدث.

وقيل إنه كان عندما يصل في ساعة متأخرة يقذف ثلاثة حجارة على سقف غرفة المعيشة، لأنّ المنزل كان من الاتساع بحيث لا يستطيع أحد سماع الطرقات على الباب ليلاً، ولذات السبب – اتّساعه ورحابته – كانت

الفرقة تأتي بكامل عدّتها وأدواتها للتمرّن وخاصّة عندما تكون منهمكة في العمل على أغنياتٍ جديدة.

وفي أيّام السبت عندما يكون الناس في الخارج مشغولين بالرقص يأتي بعض من زملائه في العمل، بالإضافة إلى أصدقائه أيضاً، فيلعبون الورق وهم يتحدّثون ويتضاحكون حتى ساعات متأخرة، وفي الصباح لا يبقى من اجتماعهم أثر سوى أغطية زجاجات الشرب وأعقاب السجائر مبعثرة في الأرجاء كلها، الأمر الذي يجعل من التنظيف يوم الأحد أمراً بالغ التعب والتذمّر.

ربّما لأنّ تلك الجلسات لم تكن محلّ ترحيب من الجميع حيث كانت أمّي دائمة التذمّر منها، ولا سيّما أنها أحياناً تتكرّر في أيّام من غير نهاية الأسبوع، كانت تقول إنّها تشعر بالريبة تجاه أولئك الضيوف دون أن تعرف سبباً لذلك.

الثلاثاء ١٦ يونيو ٢٠١٥م

لم أخرج إلى أيّ مكان لأنّ الطلقات الناريّة ظلت تُسمع طوال النهار، قبل أن تصبح متقطعة عند العصر ثمّ تصمت تماماً مع حلول المساء. قيل إنّ الأمر ليس سوى حملة مطاردة من الشرطة لاصطياد الكلاب الضّالة، لأنّ البلدية تريد التخلص من منظرها القبيح مثل الوصمة في جبين المدينة، وتسكّعها دون رقيب خشية أن تعتدي على الزوّار الذين سوف يتوافدون من جميع الأنحاء، من أجل الاحتفال بيوم الرقص الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى.

– يمكنهم اصطياد عصفور بطلقة كلاشنكوف.

أجابني موظف الاستعلامات في الفندق عندما سألته عن الفائدة من إطلاق كلّ تلك الكمّية الهائلة من الرصاص، من أجل قتل عشرات من الكلاب الضالّة التي قد لا تؤذي أحداً؟... وأضاف بسخرية أكبر يقول:

– دويُّ الرصاص هو موسيقاهم المفضّلة.

تلقيتُ مكالمة هاتفيّة من المدير تفيد بتسلّمه التقرير، أشاد بالمستوى الممتاز الذي أُعِدَّ به؛ لكنّه لم ينسَ أن يبدي ملاحظة بها رائحة عتاب لا تخفى:

– لو كنت هنا لكانت النتائج أروع يا دكتور!

لم ألتفت إلى دعوته المبطّنة لقطع إجازتي والعودة من أجل تقديم التقرير، وأكّدتُ له أن الأمور سوف تكون على ما يرام.

قضيتُ ما بقي من اليوم مشغولاً ببعض الأمور الصغيرة، التي غفلت عنها في الأيام السابقة جراء الإرهاق الذي كنتُ أشعر به، حيث كَوَيتُ بعضاً من القمصان التي تكرمشت في الحقيبة، ووجدتُ متعةً في خياطة بعض الأزرار التي تقطّعت.

تعجبتُ من أنّ مهارتي في خياطة الأزرار ما تزال ممتازة، رغم مرور سنوات طويلة على قيامي بذلك آخر مرة، وهي عندما كنتُ أعمل ولداً "حراوي" عند "الترزية" في الإجازات المدرسيّة.

تألّم أسفل عمودي الفقري بشدّة نتيجة كيّ الثياب، إنّه نفس الألم الذي أعانيه عندما أضطرُّ إلى الانحناء فترة طويلة، مضى أكثر من ثلاث سنوات وأنا أقاومه بالمساج فيختفي ليعود إلى الظهور من جديد بعد أشهر، وبحدّة أقوى كأنه يريد أن ينتقم.

أصبحتُ في الآونة الأخيرة أحاول العيش معه وتقبّله كتحذير مُبكّر على تقدّم العمر، إلى جانب الشيب الذي أخذ يزحف إلى الرأس يوماً بعد يوم، ويزداد سفوراً نتيجة تردّدي في قبول نصائح الزملاء بصبغه قائلين لي: لا تزال شابّاً.

كان تردّدي يعود في جزءٍ منه إلى أنّ النصيحة تبدو بطريقة ما، إشارة لئيمة لتجاوزي سنّ الأربعين دون خوض تجربة الزواج، مع ردٍّ جاهزٍ على الدوام لمَنْ يتجرّأ على السؤال: "الموتُ مصيرٌ، أمّا الزواجُ فاختيار".

بالصدفة عثرت بين موجات الأف.أم. على إذاعةٍ تبثّ أغنيات فنّانين محليين مغمورين لم يسمع بهم أحد، وجدتُه أمراً مسلياً أن تستمع لفنّانين يجرّبون حظهم للمرة الأولى، فهكذا يمكنك ذات يوم عندما تذيع شهرة أحدهم المفاخرة بأنّك من الذين صنعوه والتحدّث عن رجفة حنجرته عند الظهور الأول له، لكنّي لم أستطع الاستماع كثيراً لأنّ هناك عيباً شنيعاً كان يشوب طريقة تقديم الأغنيات، وهو وضع الإعلانات التجارية في ذروة الأغنية عند بلوغ المستمع قمّة الطرب، وجلُّ المنتجات المعلن عنها تستهدف بالأساس النساء وصغار السنّ من المراهقين والمراهقات.

لحسن حظي لم تنقطع الكهرباء طوال اليوم بحيث تمكنتُ من إنجاز جميع المراسلات العالقة في العمل، تلقيتُ رسالة تحمل خبراً جميلاً من صديقي رونالدو مشجّع فريق الريال المتعصّب إلى درجة أنّ اسمه الحقيقي اختفى خلف اسم لاعبه المفضّل كريستيانو رونالدو، يخبرني أنه نجح أخيراً في تحويل جميع صور الألبوم العائلي إلى نسخ إلكترونية، بعد أن أنجز معالجة المهترئة منها بالشكل الذي يحفظ ألق الماضي أي دون عمليات فوتوشوب.

سعدتُ كثيراً لأن تلك الصور قد أصبحت قديمة للغاية، وتآكلت أجزاء منها بسبب السنين وسوء التخزين الذي جعلها في مرمى الرطوبة والعفن. تحدّث باقتضاب وأنفاسه لاهثة كمن يعدو، لم أستغرب لأن ضجيج نادي

المشاهدة كان يُسمع خلفه، والألفاظ النابية العالية تصلني عبر سمّاعة الهاتف، قلتُ له ضاحكاً: سوف أتركك في ورطتك، يبدو أن فريقك اليوم مهزوم.

حلَّ المساء ولم يأت تعبان، وجلستُ أحتسي القهوة وحيداً، استغرقتُ أكثر من ساعتين لأفرَغ من الكوب الواحد، فقد كانت قهوة حبشية مليئة بالزنجبيل اللاذع الذي يحتاج إلى تأنٍّ وونسة، وكان الجوّ جميلاً ينعش هواءه عطر الليمون الذي أخذ يتسلّل من بستانٍ قريب.

ولم يقطع هدوء المساء ولطفه الجميل إلّا دخول مجموعة من الأطفال والنساء المتقدّمات في السنّ، كأنّهم أحفادٌ وهنَّ جدّات، وقد أخذوا ينقلون الرماد بأوانٍ مختلفة الأحجام، كانت نفس الوجوه تدخل وتخرج حاملة نفس القدر من الرماد.

– لماذا الرماد في يونيو؟!

قفز السؤال إلى رأسي لأنّ الرماد لا قيمة له إلّا في مناسبتين، أربعاء الرماد عندما يضع الكاهن على الجباه علامة الصليب إشارةً إلى ابتداء الصوم الكبير، وعند حلول فصل الشتاء حيث كان الجميع تقريباً يؤمنون بأن عفريتاً يجوب الشوارع في الأيّام الأولى منه، ولذلك كان يُرَشّ أمام المنازل حتّى لا يستطيع الدخول وخطف الأطفال الصغار.

وهكذا كانت بدايات الشتاء دائماً موعداً للخوف، مساءاته ساكنة بلا مظاهر للحياة سوى خطوط من الرماد الأبيض تظهر أمام المنازل، مؤكدةً أن الحيّ خائف

وخلف الأبواب الموصدة مَنْ ينتظر بصبر نافد شروق الشمس. كان الأمر يتكرّر كلّ شتاء رغم أنّ القساوسة يحثّون المؤمنين في الكنائس على التخلي عن ذلك.

لم تكن لتينك الزحمة والضجة علاقة بالشتاء أو الصوم، كانت من التجهيزات للاحتفال الذي ينتظره الجميع، لقد كانوا يجمعون الرماد من أجل تحضير "كمبوجور"، البهار الذي لا غنى عنه في طهو مأكولات الخضار، التي يحبّها الضيوف أكثر من أيّ طعام آخر لأنها تناسب حرّ الصيف هنا.

تسرّب بردٌ منعش داخل الغرفة، وفي الخارج لمع برقٌ في ظلمة السماء، كنتُ سأندسّ تحت الغطاء الخشن وأجعله يهدهدني حتّى أنام، لولا خالي المغترب الذي أنتظرُ مكالمته، وقد واظب سنوات طويلة على إطلاق وعود بدنوّ عودته دون أن يأتي أبداً، حتّى لم يعد من أحد يطرح عليه السؤال عن موعد قدومه بالضبط، لكنه مع ذلك واصل تجديد وعوده ولا سيما مع اقتراب الكريسماس من كلّ عام، كأنّه لم يلاحظ أنّ الجميع قد كفّوا وتوقفوا عن التحدث معه عن العودة إلى الوطن.

عليّ أن أنتظره رغم أن جفنيّ مثقلان جداً بالنعاس، وقد أسقط أمام النوم في أيّ لحظة... إنّ فارق التوقيت بين القارات يُعذبني.

الأربعاء ١٧ يونيو ٢٠١٥م

مررتُ بكشك الصحف بعد أيّامٍ من الغياب فوجدتُ الجرائد قد تراكمت في انتظاري، توجّهتُ إلى البار الذي قادني إليه تعبان عند لقائنا الأول، وهناك غرقتُ في القرءاة شارباً كوب شاي وراء آخر.

خصّصت إحدى الصحف ملفّاً عن المدينة، شدّني بين موضوعاته عنوانٌ لافت "كاتدرائية التحدّي"، تحدّث الكاتب عن كيف كان "المندوكورات" يقولون للبنّائين إنّ البناء سوف ينهدم في النهاية لأنّه معبد أصنام، وإنْ نجا فإنّه سوف يتحوّل إلى مسجد، أمّا ديانة "الخواجات" فسوف تلحق بهم، سوف تنتهي مثلما انتهى استعمارهم، ذلك الأمر جعل المؤمنين يدخلون في تحدٍّ مع الصرح الكبير، فعزموا على ألّا يمنعهم شيء عن إكمال البناء وانطلقوا يتبرّعون أكثر من ثلاث سنوات، ومَن لا يملك نقوداً منهم كان يتبرّع بالماشية أو ببعض من حصاده، وآخرون بالعمل بأيديهم فترات متقطعة، لأنهم لا يملكون شيئاً يمكنهم التبرّع به.

وهكذا بعد قرابة عشر سنوات من العمل المتواصل ليل نهار، ارتفعت في السماء قبّة المبنى بهيبة رآها الناس دون أن يخرجوا من منازلهم حتى، ولم يروا ما يماثله في الفخامة والجمال منذ أن بنى المستعمرون سرايا الحاكم بالسُخرة زمن أجدادهم المساكين.

وسارع الجميع إلى إطلاق اسم مريم التي كُرّست لها الكنيسة على أطفالهم الذين وُلدوا في تلك الأيّام، وقد أراد بعضهم تحت وطأة الحماسة إطلاق ذات الاسم على مواليدهم الذكور، وقد دافعوا عن محاولتهم قائلين إنّ الأسماء المباركة يمكن أن تكون من نصيب الجنسين معاً تعميماً للبركات.

رفض القساوسة الأمر على الفور حيث لم يستطيعوا حتى مجرّد السماح لأنفسهم ولو في الخيال، أن يروا ذكوراً يحملون اسم العذراء، فضلاً عن أن يباركوا هم أنفسهم الأمر عبر طقوس العماد، بدلاً من ذلك شجعوا على إطلاق اسم يوسف على أولئك الأولاد.

وجدتُ لذّةً في الجزء الذي تحدّث عن الحفلة التي أُقيمت يوم افتتاح الصرح الكبير، والذي جاء من أجله فنّانون مهرة من مختلف الاتجاهات، أعدت قراءتها مرّةً بعد أخرى، قال الكاتب إنّ الجمهور طلب مباركة الآلات الموسيقية لفرقتهم المحلية التي تفوّقت على جميع الفرق لكنّ القساوسة رفضوا ذلك خشية أن يصبح الدين نوعاً جديداً من الشعوذة، لأنّ السحرة يفعلون الشيء نفسه بآلات الزراعة وغيرها، وحتى لا يغضب الجمهور سُمِحَ للفرقة بالتمرُّن في أيّ وقت تريد على مسرح الكاتدرائية، واستخدام بعض الآلات الموجودة إنْ تطلّب الأمر ذلك.

استمرّت الفرقة سنوات طويلة في التمرّن داخل الكاتدرائية، حتى أُرغمت على التمرّن في بيوت الأعضاء

عندما اشتدّت قبضة عبّود الذي منع قيام أيّ نشاط في الكنائس سوى الصلوات، ولم ينسَ العسكر الذين نفّذوا الأوامر مصادرة بعض آلات الفرقة، ومنها الجيتار الباص الذي استُردَ لاحقاً بواسطة أحد الجنود حيث باعه لأحد الأعضاء، وقد ظلّ محتفظاً بلمعانه حتّى الليلة التي اختلط فيها لونه الأحمر بدم عازفه.

توقفتُ أكثر من مرّة لأعيد القراءة لأن الكاتب كان يتحدّث عن نفس الحفلة التي كنتُ أسأل نفسي على الدوام كلما رأيتُ صورها في ألبوم العائلة، كيف نجا المصوّر الذي وثّق لها منذ لحظة دخول العروس، وهي تجرّ ثوب زفافها المضحك وصولاً إلى أبي والجيتار الأحمر بين يديه.

بقي السؤال في رأسي سنوات دون إجابة شافية، لأن خروج المصوّر بحثاً عن عصير "الفيتا" الذي يحبّه، قبل أن يقع إطلاق النار بوقت قليل كما سمعتُ كثيراً، ظلّ لا يعجبني على الدوام، ويبدو تبريراً مبتذلاً جداً.

وها أنا ذا قد وجدتُ أخيراً مَنْ قد يعطيني الجواب الذي أريده، هكذا فكرتُ ثم دوّنتُ عنوان الكاتب واسم الصحيفة، وقد عقدتُ العزم على أن أتّصل به، ربّما لديه قصّةٌ أخرى غير عصير الفيتا يمكنني سماعها.

الجمعة ١٩ يوليو ٢٠١٥م

خيّم هدوءٌ ثقيل وخمد النشاط الذي كان يدبّ في كلّ شارع، وفي الخارج كان يُسمع فقط هفيف الريح عبر الأغصان، ووقوقات أسراب الكُركي التي تتقاتل من أجل موطئ قدمٍ أعلى شجرة الكافور في البناء المجاور، ووقع أقدام تطأ الأرض خائفة، شعرتُ بالملل دون أن أدري ماذا أفعل أو إلى أين أتّجه؛ فقد أُلغيت الاحتفالات التي استعدّ لها الناس طويلاً في نفس يوم الخميس الذي انتظره الجميع بصبر نافد، ولم يعد من شيء سوى الفراغ يمدُّ لسانه في كلّ مكان.

طفح الوجوم في الجوّ بدل الموسيقى التي تصخب عادة نهاية الأسبوع هنا، لتمتلئ البارات والمقاهي بالروّاد وبينهم في بعض الأحيان ربّات البيوت اللواتي يعدنَ مبكراً، قبل انتصاف الليل بوقت قصير، وقد أخذن معهنّ شيئاً من أجل الليل الطويل: ويسكي خفيفة حتى يستطعن الصبر على الساعات الطويلة التي يغيب خلالها أزواجهنّ، الذين تجلب الشرطة بعضهم باكراً في اليوم التالي بعد أن تكون عثرت عليه ملقىً على قارعة الطريق، أو متورّطاً في شجار مع صاحب بار أو فتاة ليل رفض أن يدفع لها.

لا شيء من كلّ ذلك. فقط صمت ثقيل وهدوء حذر، رغم محاولات خجولة لإذابته من بعض الصبية الذين أخذوا يطوفون الشوارع في تحدٍّ للحزن الذي عمّ

الجميع بلا سبب ظاهر، وأخذوا على عاتقهم التجوال من بار إلى آخر وهم يصدحون بأغنيات مليئة بالبذاءات من أجل إنقاذ "الويك إند" من الضياع، "لا يمكن للجمعة أن تكون كئيبة مثل الاثنين لن نسمح بذلك"، كانوا يغنّون ملء حناجرهم.

وددتُ لو كان بمقدوري الانضمام إلى رفقتهم لكنّي فكرتُ كم سأكون أضحوكة بينهم نتيجة فارق العمر، بالإضافة إلى سبب آخر، إنّه خوفي الأزلي من رفقة الغرباء، الخوف الذي ظللتُ أحمله منذ الطفولة دون أن أستطيع التخلص منه أبداً، رغم أنّني تخلصتُ من كوابيس أُخرى كانت تخيفني وكنتُ أستحقر بسببها، مثل عدم أكلي طبخة البامية المفروكة.

والسبب في ذلك يعود إلى أنّ خالي الذي يحبّ المزاح كثيراً، قال ذات يوم عندما وجدني آكل المفروكة: ها أنت ذا تأكل المخاط، ثمّ تظاهر بأنّه يمخط في الطبق. عنّفته أمّي على ذلك وأخذت عدّة لقمات لتقنعني بأنّ كلامه غير صحيح، لكن رغم ذلك لم أعد إلى أكل المفروكة أبداً إلّا بعد امتحانات السنة الاخيرة في الجامعة، وذلك خلال انضمامي فترةً وجيزة إلى جمعية النباتيين من باب تزجية الفراغ لا الإيمان.

قبل أن تُلغى الاحتفالات سرت شائعة بأن جماعةً من المتمرّدين تسللت إلى داخل المدينة في هيئة زوّار جاؤوا من أجل المهرجان، وتفشّت أخرى بأنّ بعض الأشباح خرجت من المقبرة غاضبة، وتجاوبت معها

الأشباح الموجودة في البيوت الكثيرة المسكونة بالمدينة.

وانشغل الناس بأمر الأشباح أكثر من المتمرّدين، وانخرطوا في تخمينات متنوّعة لمعرفة الدوافع وراء استيقاظها، هل تريد المشاركة في الاحتفالات أم هي غاضبةٌ لعدم دعوتها، ثرثروا بأقوال كثيرة لكن إجماعهم انعقد على أن السبب لا بدّ من أن يكون عائداً إلى أعمال الترميم التي تجري في المنزل "نمرة ٣".

ربما ارتكب العمال خطأً ما أثناء أعمال الترميم، قال بعضهم، وبرّر للخطأ المزعوم ارتكابه بالسباق مع الزمن من أجل الإنهاء قبل وصول الرئيس إلى المدينة، وقد قيل إنّ فخامته سوف يكون حاضراً في يوم التدشين.

وهكذا وجد العمال أنفسهم يعملون طوال أربع وعشرين ساعة من أجل إنجاز العمل في وقتٍ وجيز، ومسلّطة على رؤوسهم توجيهات متكرّرة بأن يحافظوا على الحزن الذي يسكن المكان، "إنه ترميم لا بناء"، كانوا يُذكّرون بذلك على الدوام.

تعجبتُ كيف لم تستطع أجراس الكاتدرائية التي تُقرع ثلاث مرّات في اليوم حماية الناس من الاعتقاد بأنّ الأشباح تقف وراء الخوف والهلع الذي يعمّ الجميع، لكنّي ضحكتُ على نفسي بسبب تفكيري الساذج عندما تذكّرتُ أن المنزل نفسه قريبٌ من الكاتدرائية، على مرمى حجر منها.

كنتُ أخطط منذ الصباح لأن أزور ذلك المنزل لكنني لم أفعل، وبقيتُ ضحيةً للملل الذي لم ينجني منه إلّا ظهور تعبان، كنتُ سعيداً لذلك لأنه غاب كثيراً دون أن أدري أين، طلب منّي ألّا أصغي إلى الشائعات، ودون أن يخوض في تفاصيل أكثر أضاف أنه سوف يعود لاحقاً وعليّ انتظاره. فقط قال انتظرني وخرج.

لا خيار لي سوى أن أنتظر حتى أرى ماذا وراء هذه الجمعة الكئيبة، المسكونة بالهدوء الثقيل بدلاً من الموسيقى وفوضى السكارى.

وأنا لا أخاف السهر فاليوم أمرّ وغداً سبتٌ!

السبت ٢٠ يونيو ٢٠١٥م

استيقظتُ وأنا أشعرُ بالصداع وقد لاحظت أنّ عينيَّ ازدادتا احمراراً، وأصبحت خطواتي ثقيلة مع دوار خفيف عندما أنهض، أطلقت اللعنات على تعبان لأنه جعلني أساهر، ذلك أنه طرق غرفتي بعد منتصف الليل، عاد بعدما ظننته نسي أمري، كان على وجهه قلقٌ وخوفٌ وتعبٌ لا يخفى.

وتحت ضوء القمر وأصوات الجدجد التي تدفقت مع النسيم من شجرات القشطة المتكئة على الحيطان، والنباح المتقطع لكلاب في الشوارع البعيدة، جلسنا في الفناء، جلب معه زجاجة بست وأخذ يرشف منها جرعة بعد أخرى وهو يتمتم قائلاً: انتهى كلّ شيء، غداً سوف يعودون إلى حياتهم كأنّ شيئاً لم يحدث، هكذا هم دائماً ينسون سريعاً.

وكأنه كان يوجّه الحديث إلى نفسه استمرّ في الكلام فترة من الوقت، قبل أن يوجّه الكلام إليّ مع نهاية الزجاجة بصوت خافت: والآن تستطيع أن تعرف السبب وراء نسيان والدك، وكأنّه مجرّد شخص عادي، كأنهم لم يرقصوا على موسيقاه ذات يوم، لقد نسوه كأنه لم يكن هنا.

بعد ذلك تجشّأ بصوتٍ عالٍ، وقد أصبح لسانه ثقيلاً وهو ينظر إلى عينيّ مباشرةً هذه المرّة، كأنّه يريد أن يقيس درجة الانفعال في بؤبؤيْ عينيّ: لم يجد قبراً في

مدينةٍ تبدأ المقابر فيها عند عتبات غرف النوم، الآن عرفتُ كم هو محظوظٌ الإغريقي اللعين باسيلي عندما تَنصَّل من تلك الحفلة اللعينة.

– إغريقي، تنصَّل؟

همهمتُ باستغراب..

– نعم الإغريقي باسيلي.

أجاب بضجرٍ كأنني رميتُ عليه عود ثقاب ثمّ أضاف بحدّة: عندما يموت اللعين سوف تقول له تلك الأرواح التائهة، لقد كنت على حق، كان علينا أن نتبع خطواتك، كان علينا أن وأن...

استمرّ يتكلم وأنا أستمع وأقاطعه أحياناً حتى الفجر، علمتُ منه أن اغتيال مجهولين لـ"كجور المطر" في منزل صغرى زوجاته، هو السبب وراء الخوف الذي خيّم على الجوّ وألغي المهرجان بسببه، لأن أبناءه سوف ينتقمون، وقد سمّوا أهدافهم بوضوح: كلّ مَنْ يشكّون فيه وكلّ مَنْ له نزاعٌ مع المرحوم. قد يتحوّل الأمر إلى حرب صغيرة لها قوانينها التي لا تجيدها الحكومة، بل هي نفسها قد تصير هدفاً إذا لم تُسمَّ القتلة. بالنسبة إليهم لا يمكن للقتلة أن يكونوا مجهولين لها، إلّا إن كانت تريد ذلك ولمصلحة تخصّها.

وحتّى ينطفئ الغضب في وقت لا يعلمه أحد، سوف يظلّ المهرجان مؤجّلاً، والذين قدموا من بعيد قد لا يأتون مرّة أخرى لأنّهم قد خسروا كثيراً، وبعضهم يشعر بأنه قد غُرِّرَ به، وقد يفتعلون الشغب إذا شعروا بأنّ

رئيس الجمهوريّة لن يأتي أبداً، وأنّ أمر قدومه من الأساس ربّما يكون خدعة من أجل إكثار الحضور.

فالرجل – الرئيس – بالنسبة لبعضهم مثل بابا نويل للأطفال، لقاؤه من المستحيلات، لكنّ مَن يلتقيه تتبدّل حياته، وإلغاء المهرجان يعني أن تلك الأحلام قد أصبحت الآن في مهبّ الريح، ضاعت بلا عودة، والفقر سيبقى.

أمّا أنا فكان شعوري بالغضب يعود إلى أنّ التأجيل يعني أنّني لن أستطيع أبداً مشاهدة "رقصة الرجال المقنّعين" التي أحببتها إثر قراءتي رواية "زهرة الكركديه الأرجوانيّة"، وأصبحت منذ سماعي بأمر الكرنفال أسترجع فصولها في انتظار اليوم الكبير، رغم أنّ قدومي إلى المدينة يتناقض وقدوم البطلة فبينما كانت تزور مدينة آبائها وهي برفقة والدها، جئت أنا أبحث عن والدي.

تمنّيتُ لو كانت تلك الرواية معي!

على أيّ حال، ما يزال تعبي مستمرّاً وأنا أنتظرُ قدوم تعبان حتّى أسأله عن الإغريقي باسيلي، وقد تسلّل إليّ شبه يقينٍ بأنّ لديه ما قد أحبُّ الإصغاء إليه. لقد تأخر جداً لكن لا قلق من جانبي، فالسبتُ ما يزال طويلاً.

الأحد ٢١ يوليو ٢٠١٥م

منذ الصباح كنتُ أفكر في الذهاب إلى الكاتدرائية من أجل الالتقاء ببعض الأشخاص، وفي انتظار أن يُقرع جرس القداس الثاني انشغلتُ بتدوين بضع ملاحظاتٍ وأسئلة أودّ طرحها على الكاهن الذي صدر له كتاب عن المدينة، وذلك حتى لا أنسى عندما أكون أمامه، فالذاكرة تخون أمام اللقاءات العظيمة مثلما تفعل أمام اللقاءات العابرة أيضاً.

أيقظني من التدوين نادلٌ دخل دون أن يطرق الباب أو ربّما طرقه طرقاً خفيفاً فلم أسمع، جاء يذكّرني بأنّ موعد الشاي قد أتى، سألني عمّا إن كنتُ أفضل احتساءه خارجاً أم داخل الغرفة، ولأنّ الطقس باردٌ ومليءٌ بالرطوبة أكدتُ له أنّني سآتي حالاً حتى لا ينتظرني الشاي فيبرد، كما أنّ على تعبان أن يجدني جاهزاً عندما يأتي بدرّاجته "السِنكِيه" التي يُسمع ضجيج محرّكها من بعيد مثل خوار ثورٍ هرم ينازع الروح، وهي الطراز المحبَّب لرجال الاستخبارات هنا فرغم بشاعة منظرها هي حمار شغل ولا تستهلك الكثير من الوقود كما يقولون.

مَنْ كان ليلة الجمعة معنا لن يصدّق أنّني أنتظره هو لا شخصاً آخر غيره، ولن يصدّق أيضاً أنّه نهض ووصل إلى منزله سالماً، هو نفسه الذي كان يتقيّأ حتّى ساعة متأخّرة ويصرّ على الشرب أكثر كلّما تقيّأ، كأنّه يريد

تعويض ما فقده، وبين نوبة تقيّؤ وأخرى كان يصرخ بالنادل طالباً منه أن يأتي ليسقيني، فأذكّره بأنني ممنوعٌ من ذلك بأمر الطبيب، فيلحّ عليّ أن أخذ كأساً، مردّداً كلاماً من مقرّر التربية الدينيّة: "خُذ القليل من الخمر لمعدتك" ثمّ يضيف: آه لقد تذكّرتُ، فهل تذكّرتَ معي عرس قانا الجليل، هل تذكّرت عندما كنّا في الصفّ الثالث وطلب المعلّم منّا تمثيل أولى معجزات المسيح، تحويل الماء إلى خمر، هل تتذكّر كيف اقترح الجميع إسناد دور مريم إليك، لأنّك كنتَ الأهدأ أمام المعلّم الذي وجد الأمر مسلياً، بحيث جعلك تقوم بالأمر على غير رغبتك.

استمرّ في جرّ الذكريات البعيدة، التي وجدتُ صعوبة كبيرة في استرجاع بعضها معه، وإنْ كنتُ لا أزال أتذكّر عموماً أنّنا كنّا في الطفولة البعيدة من حياتنا مغرمين جداً بالتمثيل في المدرسة والكنيسة والشارع، وأيّ مكان تسنح لنا فيه الفرصة، رغم أنني لا أستطيع الآن سوى تذكّر العناوين القليلة جداً من تلك المسرحيات.

لكن ماذا أفعل، فتلك أيضاً علامة من علامات الكبر الذي لا نستطيع فعل شيء تجاهه أو الزوغان منه، فالعمر قدرٌ لا مفرّ منه، لكن ربّما عليّ أن أعود إلى شرب الخمر في وقت لاحقٍ من حياتي، ربما يكون ذلك فرصةً أعود بها إلى الوراء، إلى مجاهل ذاكرتي البعيدة، ربّما يحدث ذلك.. مَنْ يدري!

عندما لاحت خيوط الفجر في الأفق نهض وهو ما يزال يترنّح، ووسط الذهول ضرب لي موعداً وهو يقول: سنلتقي في الصباح الذي يبعدُ قليلاً، أمّا الآن فاذهب وخذ لنفسك قسطاً من النوم، وتذكّر أن الكثير ينتظرنا في الغد.

لقد لاحظ أن صوت المؤذّن بدأ يرتفع ضئيلاً مثل خيط ضوءٍ في الظلام، فخمّن أنّ شروق الشمس قاب قوسين أو أدنى، وطلب منّي وهو ما يزال ثملاً دوزنة منبّه ساعتي جيّداً، حتّى لا يجدني نائماً عندما يعود إليّ، وحذرني بلسانٍ ثقيل وهو يترنّح أنه لا يطيق الانتظار كثيراً.

بعد ذلك خرج دون أن يترنّح كأنّه استعار رجلي شخصٍ آخر لا رجليه هو، مَنْ كاد يسقط قبل قليل ويثرثر بكلامٍ كثير فيه كلّ شيء كأنه كيس المحتطب ليلاً، علمتُ أنّه وصل بسلام لكنّه مع ذلك لم يَعُد حتّى الآن، ربّما نسي هو دوزنة منبّهه لذلك لم يأتِ أمس وتأخّر اليوم.

حتى الآن شربتُ أكثر من كوب شاي لأخفّف التوتّر الذي بدأ يجتاحني، وتزيده رغبةٌ جارفة في التقيّؤ تحرق بلعومي، كأنّ أحدهم أشعل النار داخل أحشائي.

عليّ الخروج حتى لا أوسّخ بلاطة الكافتيريا، لكني لا أستطيع النهوض لأنّ الصداع اشتدّ وزاد الدوار، لم أعد قادراً على مواصلة الكتابة، لا أستطيع فعل ذلك، أحتاج إلى مَن يساعدني على النهوض.

الجمعة ٢٦ يوليو ٢٠١٥م

– الحمد لله ع السلامة يا رجل.

– شكراً لله، شكراً لله.

– الحمد لله ع السلامة يا دكتور، ألف سلامة.

جاءت تلك الهمهمات من وجوهٍ كثيرة التفّت حول سريري وقد فاض الفرح منها جميعاً، ربّما نهضتُ من موتٍ وشيك. هذا أول ما طفح على رأسي، وعيني تحاول دون جدوى التعرّف عليها جميعاً، فيما التمتمات بالحمد والشكر من شفائي ما تزال تتدفق.

إذاً لم يأتِ تعبان لنذهب معاً إلى الكاتدرائية أو ربّما جاء دون أن أدري، لست متأكّداً من الأمر تماماً، لكنْ ثمّة شيء صرت على يقينٍ منه، أنّ الحمّى التي كانت تهجم عليّ في أوقات متفرّقة ثمّ تذهب قبل أن آخذها على نحو جادّ، لم تكن سوى حمّى الملاريا، أخذت تتخفّى وتتلوّن بحيث انطلت عليّ، والنتيجة أنّني أرقد على هذا الفراش الأبيض يتقطّر محلول الكنين عبر وريد على ذراعي اليُسرى، وما يشبه طنين أجنحة نحل بعيدة يرجّ في أذني.

– كدت تموت!

كان ذلك ما يبرق في العيون الملتفّة حول السرير، فيما فمي جافٌّ ومالح، بي عطشٌ قاتل، ولا شخص أستطيع سؤاله ماءً، فتعبان الذي كان يظهر مثل الطيف

والشفقة تملأ عينيه تحرّك نحو الباب القريب وخرج بعد أن قال:

– لا تقلق، سوف أعود، أنت الآن بين أهلك.

لكنه قبل أن يخرج تماماً عاد إلى العنبر، واقترب منّي وابتسامة ماكرة تعلو وجهه ليضع فمه على أُذني وهو يهمس:

– بعد أن وصلت إلى حافة الجحيم عليك أن تفكر في امرأة.

خرج لكنّ كلماته بقيت ترنّ كالجرس في رأسي، وأعادت الدوار والرغبة في التقيّؤ إليّ، فها هو الأمر الذي لا أحبّه في الحياة، يصفعني عندما أفتح عينيّ على الحياة من جديد.

السؤال الذي لا أزور الأهل بسببه، والذي يُعاد طرحه في الجلسة الواحدة أكثر من ألف مرّة وبألف طريقة: هل تزوّجت؟.. ماذا تنتظر؟.. متى سوف تتزوّج؟ علينا أن نفرح بك! هنالك ملكة تستحقك فهل نكلمها؟!

عليّ أن أخاف، فهنا الكثير من الأمّهات المستعدّات لتدبير زواج، إنهنّ لسن بحاجة إلى موافقتك. يكفي أن تعرف إحداهنّ موضع فراشك فقط، عندها تكون أمام خيارين: أن تتزوّج ابنتها أو ينتهي بك الأمر إلى جلوس القرفصاء أمام شجرة ما، أمام قاضٍ بلدي لا يمكنك تخمين أحكامه، وقانونه الوحيد هو أنّ الفتيات دوماً على حقّ.

لا أدري ما الحال التي كنتُ سوف أصير إليها لو أنّه تكلّم بصوتٍ عالٍ بدل الهمس في أُذني، لا شكّ في أنّني كنت سأسقط في جحيم أسئلة بلا نهاية، دون أن يستطيع هو أو أيّ شخص آخر أن ينتشلني، سوف يكون الأمر أشبه بالتدحرج من جبل، لذلك تنفّستُ الصعداء.

خروج تعبان رمى بي في تيه وضياع، فقد بدأت كلّ تلك الوجوه تزدحم حولي، كلّ واحدة تريد أن تشدّني إليها، إنّهم أهلي، أعمامٌ سمعتُ عن بعضهم، وبعضهم لا أعرف شيئاً عنه، حتّى الاسم، ونفس الأمر انطبق على الأخوال الذين جاؤوا أيضاً، لكنّهم جميعاً اتّفقوا نوعاً ما على إلقاء العتاب عليّ قائلين بكلماتٍ مختلفة: لماذا أخفيت نفسك عنّا!

ظللتُ في ذلك التيه وقتاً طويلاً أو ربّما توهّمتُ ذلك، لأن الأسئلة هي نفسها ذات الأسئلة، تُطرح من جديد مع كلّ متحدّث يفتح فمه: مثل أحوال الوالدة، متى سوف تعود؟ أم أن السنوات الطويلة جعلت منها إنساناً آخر؟ هل تغيّرت أم لا تزال تحتفظ بعاداتها في الأكل والشرب؟ هل علمتكم لغتنا أم نسيت هي نفسها التحدّث بها؟ وإخوانك الآخرون، ألا يخططون للعودة كما فعلت أنت؟...

وفي كلّ مرة يدخل شخص كان يقدّم على أنّه ابن خال، أو عمّ، أو خالة، دون نسيان إضافة ملاحظة تهدف إلى تقريب القريب أكثر:

– لا بد أنّك سمعت عنه!

وكان مطلوباً منّي طوال لمّ الشمل العائلي المرتجل ذلك، أن أبدي ملاحظة على كلّ كلمة تُقال، بالإضافة إلى هزّ رأسي وإطلاق بعض الهمهمات أثناء الاستماع، علامةً على الانتباه وأنّ الكلام مهمّ ويشدّ، إنّها عملية صعبة ولا سيما في حالتي أنا؛ حيث الشعور بالغربة وسط الأهل هو أمر كنتُ أعيشه.

العطش الذي كنتُ أشعر به، والغثيان والدوار والروائح النتنة التي تفوح في العنبر، كلها كانت تجعلني أقوم بذلك على أكمل وجه، بحيث كان يزيد من حماسة الأهل في الثرثرة والكلام أكثر وأكثر.

في وقتٍ متأخر من عصر اليوم دخلت ممرّضة جميلة، عليّ أن أعترف بذلك، وعليّ أن أقول أيضاً إنّني تخيّلتُ أنّ حياتي قد تصبح أفضل لو أخذت أرى وجهها كلّ يوم، ولو من فراش المرض في ذلك المستشفى المروّع الذي تلامس أجنحة الخفافيش أسقف عنابره ليلاً، وتملأ صرخات طيور مالك الحزين أشجاره نهاراً، ويبدو أن لا أحد يريد لها أن تصمت، أو لا أحد يستطيع إسكاتها.

دخلت لتبديل المحلول الوريدي الذي على ذراعي، وقد بقيت منه قطرات قليلة توشك أن تنتهي، قالت إنها الجرعة ما قبل الأخيرة، بعدها يمكنني الذهاب إلى المنزل، لأستريح من الملاءات التي لا تناسب طبيباً، لكنّها استدركت لتقول: على أيّ حال، إنه الجناح

الخاصّ، وإلا لقضيت من الروائح لا المرض، لكن حمداً لله أنّك نجوت، كلّ الزوار هنا تقريباً لا ينجون من الملاريا.

صمتت برهة من الوقت انشغلت خلالها بنزع إبرة المحلول الوريدي من ذراعي حتّى أنهض وأتحرّك قليلاً. بعد أن أكملت تكلّمت وعلى وجهها ابتسامة:

– يبدو أنّ مناعتك موروثة، تجري في الدم.

ضحكتُ فضحكَتْ.

شعرتُ بألم كوخز الدبوس في صدري، لكنّه لم يمنعني من الضحك والنهوض عن السرير بعد أيّام، بحيث شعرتُ بالألم في مفاصلي عندما خطوتُ خطوتي الأولى.

في الخارج كان الخريفُ أجمل يزيّن شجرات القشطة بالثمار، ويتوّج بتلات زهرات صباح الخير في الأصص المبعثرة بفراشات تلبس ألواناً زاهية وتتطاير مرحة.

نهضتُ من السرير نزولاً عند طلبها وذلك كيما يدبّ النشاط في جسدي، فالرقاد أكثر من اللازم يساوي المرض خطورةً، أصغيتُ لنصائحها باهتمام، ولا عجب في ذلك، فالطبيب عندما يمرض يتحوّل إلى مجرّد طفل، وعلمه قد لا يساوي شيئاً، عليه أن يطيع ويطيع.

وبمساعدتها تمشيتُ في ممرّات المستشفى، وقد أخذت تتحدّث عن المدينة، والمستشفى، والملاريا، وكنتُ أرى في كلّ كلمة تخرج منها شخصيّة ظننتني

نسيتها، ظننتُ السنوات دفنتها دون رجعة، لقد نبشت بسمتها ذكرى نجوى.

قالت لي إستر، وهذا اسمها، لأنّها حسبما أخبرتني قد وُلدت في صباح الفصح، وينادونها أيضاً بخيتة لأن ذلك الفصح شهد توقف المعارك العنيفة حول المدينة، "حدث ذلك مع صرختها الأولى" كما تحب والدتها أن تفاخر قائلة وهي تشير إلى حسن طالعها دائماً: إن الجميع فقدوا الأمل تماماً عندما أُدخلتُ إلى العنبر، وتملّكهم اليقين بأنّني لن أنجو، وإنها مع الأسف كانت بينهم لأنّ...

– ربّما نجوت لأراكِ... هههه.

تدخلتُ لأقول ذلك ببعض المزاح.

– ربّما.

أجابت وطيف ابتسامة يرفّ على شفتيها، ثمّ عادت تواصل حديثها من حيث قاطعتها:

– الذين يصلون إلى هنا من مسافات بعيدة ينتهي بهم المطاف في مستشفانا هذا، لأنّه لا يوجد مكان آخر يستطيعون الذهاب إليه، ومع الأسف لا ينجو إلّا قلّة منهم، خاصّة الذين يزورون المدينة أوّل مرّة، فالخدمات التي نقدّمها لا تتجاوز إمكانياتنا الضعيفة، والشخص الذي كان يدافع عنّا كفّ عن القيام بذلك، لقد صمت ولم يعد يتحدّث أبداً، إنّه الحاكم، حطّت بومة على سقف بيته ونعبت ثمّ طارت كما يقولون، ماتت الابنة المحبّبة إلى قلبه هنا في مستشفانا، مرضت بالملاريا لآخر وأوّل

مرّة في حياتها، لم يكن لنا ما يمكننا فعله سوى المحاولة والاتكال على السماء، لذلك عندما علمنا لحظة الإتيان بك إلينا أنّ مريضنا طبيب، كان العذاب من أن لا نستطيع فعل شيءٍ لك هو الخوف الذي تملّكنا جميعاً، وكان سوف يقتلنا لو لم يبدأ نبضك بالعودة، وقد بدأت تخرج من منطقة الإغماء الكامل إلى الوعي وأخذت تهلوس بأشياء كثيرة.

عندما لاحظت الاحتقان في وجهي، استدركت قائلة كأنّها تريد بثّ الهدوء في قلبي:

– لكن لا تخف فأنت لم تهلوس بشيءٍ يستحقّ الندم. لقد كنت تغمغم حول الموسيقى وأشياء عن والدك، لا شك في أنّه رجلٌ عظيم وأنّك تحبّه جدّاً، استغربتُ أمرك فالرجال دائماً يهلوسون بأسماء نساء و...

لاحظت اهتمامي الشديد فابتسمت كأنّها تعتذر عن خطأ ارتكبته:

– أنت طبيب، وتعرف ذلك أكثر منّي.

عرفتُ في وقتٍ متأخر من المساء بعد خروجي من المستشفى، إلى منزلٍ يُرى منه الجور المتقطّع الجريان والرمل يزحف عليه من الضفتين لا الفندق الذي كنتُ أنتظر فيه تعبان، أنّني دخلتُ في صدمة نتيجة الإسهال الذي أخذ يجري دون توقّف طوال الطريق، كأنّ بطني حنفيّة معطوبة في شارع مهجور، وزاد الطين بلّة نوبات

التقيّؤ التي لم تنقطع حتّى لحظة وصولي إلى المستشفى.

سمعتُ ذلك بتفصيل أكثر من مملّ في المنزل الذي قيل لي إنّه منزل عمّ مُتوفًى، والسيدة العجوز التي تُدعى ماما كوليتا زوجته، أمّا أولاده وبناته فقد تشتّتوا وتركوا البيت جميعاً، لقد كوّنوا أسرهم الخاصّة إلا واحداً منهم يقيم في العاصمة لكنّه لا يأتي إلّا عندما يشتدّ بها المرض، حتّى يرفع اللوم عن إخوته فلا يُقال ماتت والدتهم وحيدة كأنّ رحمها لم تلد وثديها لم يُرضِع، هذا ما قالته عن أولادها ثمّ أضافت منشرحة: لكنّك الآن ولدي ولن أكون وحيدة بعد اليوم حتّى يوم تسافر على الأقل، لذلك لا تخف من أن تكون سيّداً في هذا المنزل، إنه بيتك.

في بداية الأمر مكثتُ في المنزل على مضض، كنوعٍ من الوفاء لاعتنائها الشديد بي، وترجّيات أمّي بأن أعتني بها، كأنّها هي الضيف لا أنا:

– رفقاً بها يا بُنيّ.

كانت تقول لي في كل اتّصال.

لكنّني أحببتُ المنزل بعد أيّام، أحببتُ فيه على وجه الخصوص هذه الغرفة المنعزلة، التي أكتب فيها هذه اليومية الآن وأنا ما أزال أشعر بدوارٍ خفيف كلّما وقفتُ من أجل استعادة بعض الأحلام والخيالات التي مررتُ بها وأنا في تلك الغيبوبة التي كادت تنهي حياتي، لولا الأصدقاء والأقارب الذين أعادوني إلى الدنيا مرّة أُخرى.

السبت ٢٧ يوليو ٢٠١٥م

اكتسبت بعض الأشياء طعماً مختلفاً بل مستساغاً بالنسبة إليّ في هذا المنزل، بحيث أصبح نهوضي من المرض أشبه بنوع من الميلاد الجديد، ففي بعض الأحيان أشعرُ بأنّني شخصٌ آخر والحياة أجمل ممّا كنتُ أظنّ، قبل أن تعود سحابة الكآبة لتظلّل حياتي من جديد، عندما أتذكّر أنّ بحثي عن أبي لم يصل إلى أيّ مكان، كأنّني في كلّ يومٍ أشعر بأنّ الأمر بدأ لتوّه.

اتّصلت أمّي صباحاً تريد التحدّث معي، خمّنتُ أنّها سوف تدعوني للعودة إلى الكنيسة بعدما نلت حياةً جديدة، فربّما تلك هي فرصتها المناسبة لتردّني إلى الطريق، خاصةً لو سمعت أنّني كنتُ أستعدّ للذهاب إلى الكاتدرائية يوم أسقطني المرض، ربّما تقيم مأدبة على شرف ذلك.

صادف اتّصال أمّي دخول كوليتا غرفتي للمرّة الأولى منذ وصولي، فقد اعتادت قبل ذلك أن ترسل الفتاة التي تساعدها في أعمال المنزل، وهي ريفيّة يفوح منها أريج عطرٍ نفّاذ.

تطرق الفتاة الباب عادةً وتدعوني إلى تسلّم صينية الشاي، أو تتسلّل على أطراف قدميها إلى الداخل لتضع الأطباق بنفسها على الطاولة إذا لم تأتِها استجابة منّي، حيث تخمّن أنّني نائم، وأتظاهر بالنوم إن صادفتني

مستيقظاً أثناء دخولها حتى لا أخيفها، أشعرُ بأن بها روح قطة.

دخلت وبين يديها صينية الشاي وابتسامة كبيرة تملأ وجهها، في حركتها ارتعاش خفيف وهي تجرّ المقعد الوحيد في الغرفة، لتضعه بالقرب من سريري، بعد أن وضعت الشاي على الطاولة فيما كانت تلقي السلام، وتعتذر على قطعها نومي وإيقاظي مبكراً.

هرعتُ لمساعدتها في رفع الكرسيّ، طلبتُ منها أن تترك ذلك لي لكنّها أصرّت على أن تقوم بالأمر، وهي تقول باستسلام إن البدن قد بدأ رحلته نحو النهاية، والشيخوخة انجراف لا يمكن لأحد إيقافه، إنّها حركة إلى الأمام دون رجعة.

صبّت كوباً من الشاي طلبت منّي أن أشربه دفعة واحدة، بعد أن قالت إنها قد أضافت إليه عسل النحل وشمعه، وأضافت أنّه يساعد في تحمّل الحرّ الشديد، بل هو الدواء الوحيد الذي اعتمد عليه أجدادنا، قبل وصول الخواجات بزجاجاتهم الكثيرة وحقنهم التي تخرق مؤخّرات الجميع حتى الكبار أمثالنا دون رحمة أو رأفة.

تحدّثت بشفقة وحزن كيف أنّ الأعشاب جعلت الأجداد يعيشون طوال أعمارهم أصحّاء ومحافظين على شباب دائم، عكس الحال في الأيّام الأخيرة حيث تبدأ العظام بالتضعضع والتخلخل بمجرّد الاقتراب من الأربعين.

حاولت أن أخفّف من حزنها بالقول إنّ أحداً لم يترك الأعشاب أبداً، وإن عقاقير الخواجات نفسها مصنوعةٌ منها لكن لديهم طريقتهم الخاصة في تحضيرها، حتّى تكتسب الطعم والنكهة التي تجعلهم يستسيغونها ونكرهها نحن أحياناً.

بعد ذلك أخبرتها أنّها محقّة في ما قالت، وربما يعود ذلك إلى أنّ العالم نفسه قد أصبح يشيخ بسرعة وجنون مثلنا نحن. ضحكتَ من ملاحظتي الأخيرة ثمّ أضافت وطيفٌ من السرور في وجهها: هذا جيّد، لستُ وحدي إذاً مَنْ يتدحرج إلى القبر هنا، لكن يجب أن يظلّ العالم خلفي شابّاً كما وجدته، وهذا هو المؤسف في الأمر لديّ.

شعرتُ بالغثيان كأنّني سأتقيّأ الشاي الذي صبّته لي في كوب من القطع الصيني الملوّن بأزاهير جميلة، وكنتُ أثناء ارتشافي حذراً من أن يسقط الكوب من يدي ويتكسّر، بسبب الوهن الذي أخذت أشعرُ به منذ نهوضي، رغماً عن شعوري بالتحسّن السريع في هذا المنزل الجميل.

الخوف من أن يتكسّر الطقم الصيني بين يديّ، كان يعود إلى الأيّام الجميلة التي تخيّلتها مختزنة بين رسومها الزاهية، التي وجدتها – ويا للعجب – نسخاً عن نفس الرسوم التي تغطي الأطقم الصينية القابعة داخل خزائن منزلنا لسنواتٍ طويلة، دون أن نراها على مائدة الطعام أبداً، منذ صغرنا حتى كبرنا.

وعندما نسأل أمّي متى نراها على السُفرة كانت تقول إنها تنتظر ضيوفاً مهمّين يليقون بها، لكن في سنة من السنوات وذات يوم كان مزاجها رائقاً وحلواً، أخبرتني أنّ تلك الأطقم الصينية هي من بين هدايا زفافها المحبّبة إلى نفسها، لأنّ جدّتها هي مَنْ أهدتها لها.

كانت الجدّة رحمها الله في السبعين، لكنها مع ذلك تشعّ جمالاً كأنّها فتاة في العشرين، وحياتها بالنسبة لأمّي مختزنة في تلك الأطقم التي لا يمكنها أن تدعها تنكسر بين أيدينا، بعد أن نجت من أهوال كادت تقتلها هي نفسها.

وحكت أكثر: تركتُ كلّ شيء خلفي بسهولة شديدة دون أن أندم، أمّا الأطقم فلم أستطع أبداً، وهكذا ركبت القطار وأنا ممسكة بها طوال رحلة الأسبوع إلى هنا، كنتُ خائفة طوال الرحلة من أن أدعها خشية أن ينزل بها أحد لصوص القطارات، الذين يركبون في كلّ محطة منتحلين شخصيّات الباعة المتجولين أو هم بالفعل باعة متجولون يتحوّلون إلى لصوص عند ظروف معيّنة، وذلك عندما يجدون شيئاً يريحهم ربحه السريع من عناء انتظار القطارات التي تمرّ بالمحطة مرّتين في الأسبوع، ربما كنتُ مبالغة جداً في إساءة الظن بجميع مَنْ كانوا حولنا بتلك الطريقة، لكن عندما تحبّ شيئاً ما وتريد أن تحميه تتحوّل كلّ المخاوف والأوهام التي تعترك بخصوصه إلى حقائق سهلة التصديق، الأمر الذي يعطيك الكثير من الجهد كيما تسهر من أجله، وبفضل

تلك الأوهام ما تزال أطقم جدّتي جميلة كما هي يوم أهدتها لي.

قلتُ في نفسي ربّما قصّة تلك الأطقم هي نفسها قصّة أمي، مع فرق أنّ أمّي لم تجد حتى الآن مَنْ هو أهلٌ لإخراجها من أجله، بينما أُعتبر أنا هنا على نحو ما، ربّما بفعل الحنين والاشتياق إلى أمّي نفسها من قبل صديقتها، الشخص المناسب لإكرامه بها.

وكأنّها تقرأ أفكاري أشارت إلى أنّها ظلت تنتظر رؤية والدتي فترة طويلة، دون أن تتمكّن إحداهما من السفر إلى الأخرى، حيث ظلتا تتواعدان على اللقاء مع كلّ مسافر من المعارف يذهب في الاتجاه المعاكس، لكنّها تشعر بها عن طريق وجودي في بيتها، ولذلك أخرجت أحبّ الأطقم إليها وحرصت على إعداد الشاي بنفسها، كأنها تستضيف صديقتها الغائبة عنها، ثمّ قالت بصوت يملأه العتاب: هل يُعقل هذا؟ أن يأتي ابن صديقتي توأم روحي، ويمكث مثل الغريب في مكان الغرباء؟ أوليست الفنادق مكاناً للغرباء؟ لكن شكراً للمرض الذي صحّح الأشياء وأعادها إلى نصابها، فهذا هو المكان الطبيعي الذي يجب أن تكون فيه في هذه المدينة.

– اشرب كوباً آخر.

قالت وهي تصبّ لي الشاي بذات اليد المرتجفة، تردّدتُ في البداية، لكن هذه المرّة وجدت الطعم مختلفاً عن الكوب الأول، كان الانتعاش هو الشعور الذي يملأني عندما وضعت الكوب فارغاً على الطاولة، بعد ذلك

فتحت سلّة صغيرة مصنوعة من القشّ كانت قد وضعتها تحت الطاولة دون أن أنتبه، لتخرج قطع مانجو مجفّفة زكيّة الرائحة، قضمت واحدة منها وناولتني أخرى وهي تقول إنّها بقايا إنتاج أعياد الميلاد التي لم تستطع الخفافيش إفسادها.

واصلت حديثها وهي تأخذ قضمةً أخرى: لو كنت هنا في وقت مبكر في ديسمبر أو أبريل، ربما استحال عليك النوم في هذا المكان، فالخفافيش تستلذّ طعم المانجو أكثر من أيّ فاكهة، لذلك فإنها تبدأ منذ خروجها من مخابئها بمهاجمة الثمرات التي بدأت تنضج حتّى تطردها أشعّة الشمس، أثناء نشاطها تشعر بأن أسقف الغرف تُرمى بالحجارة من قبل الجنون، والأشجار التي في هذه الناحية من الفناء حيث غرفتك هذه، هي المفضّلة لها.

ومع ذلك لم نستمع إلى النصائح بقطع الأشجار لأن المنزل دونها يصبح فرناً لا يمكن احتماله في يناير، نتقبّل الأمر كضريبة سكن في هذا المكان الجميل بالإضافة إلى أن بعض هذه الأشجار غُرست قبل وضع أساسات المنزل نفسه، إنه نوعٌ من الوفاء لها، لكنّ ذلك لا يعني ألّا تزورنا في يناير، فالأمور أصبحت تختلف كلّ سنة

والخفافيش نفسها أصبحت تتناقص مع اختفاء جنّتها تدريجاً.

– لا تقل إنك لا تعرف جنّة الخفافيش، لا عليك، سوف تراها في وقت ما!

سألتني باندهاش قبل أن تواصل تدفّقها:

مع تآكل الجنّة ونقصان مساحتها سنوياً، بفعل زحف المباني الحكومية وابتلاعها دون رحمة أجمل البساتين التى تتنفّس عبرها مدينتنا.. أصبحنا نخشى أنها سوف تختفي، وعند حدوث ذلك لا أحد منّا يعلم إلى أين سوف تهرب المدينة من موجات الحرّ الحارقة التي تهبّ من يناير حتى أبريل. على كلّ حال، الجميع في انتظار ما سوف تقوله الحكومة عندما يرفع الأهالي إليها الشكاوى، أمّا أنا فأعلم أنها لن تفعل شيئاً، لأن اللصوص الذين يجلسون في المكاتب هنا إخوة في الأفعال مع أولئك الجالسين في مكاتب فارهة في العاصمة، لكن الجميع هنا يرفضون ترك الأمل إذ يعتقدون أنه ربّما تقع معجزة ما.

بعد أن أكملنا الشاي الذي استمرّ وقتاً أطول من المعتاد دعتني إلى غرفتها، وقالت إنّها تريد أن تريني بعض الأشياء التي قد تفيدني، أشياء تافهة، قصاصات أوراق

قديمة، وبعض الصور، وأشياء أخرى تصنع الزحمة في غرفتها دون طائل.

– باستطاعتك أخذها معك فلا أحد هنا سوف يحتاج إليها.

قالت وأضافت:

أولادي جميعاً كما تعرف تشتتوا في الأرض، ولا أحد منهم أصلاً يهتمّ بمثل هذه الأشياء، وأنا أيضاً مثلهم لا أحبّ الأوراق ولا سيّما تلك القديمة التي تجبرني رائحتها على العطس كثيراً، لكن كان عليّ أن أحتفظ بها حتى يظهر الشخص المناسب الذي قد يستفيد منها. عندما كان زوجي حيّاً كنتُ أحاول إقناعه بحرق أوراقه المكدّسة دون إمكانية أن تتحوّل إلى نقود في يوم من الأيّام، لكنّه في كلّ مرّة كان يتحجّج بترك الأمر إلى وقته المناسب، وهكذا مرّت السنة تلو الأخرى دون أن نتمكّن من القيام بذلك حتّى تركني وحيدة في الدنيا بين تلك الحزم من الأوراق، لكنّني بعد وفاته أصبحت أرى في حرقها نوعاً من الخيانة له، بل أصبحت أراها أحبّ ما بقي منه، ومع ذلك لا يمكنني الاحتفاظ بها إلى الأبد لأنها سوف تحترق بمجرّد رحيلي عن هذه الدنيا، وهذا ما لا أريد حدوثه أبداً، وأخشاه كأنّه موت ثانٍ له،

وهكذا يحدّثني قلبي كلّما فكرت في الأمر، كنتُ طوال الأيام الأخيرة أفكّر في إهدائها إلى باسيلي الذي ظلّ يشاركه حبّ الأوراق والموسيقى والذكريات، لكنّني غيرت رأيي عندما وطئت أنت هذا المنزل، أنا في انتظارك، وإن كنت محظوظاً فقد يأتي إلى المنزل اليوم لأنّ غيابه قد طال على غير العادة، ولديّ إحساسٌ بأنّه في الطريق فعيني ترمش على غير عادتها.

لم أنتظر كثيراً حتى ألبّي دعوتها، أخذتُ دربها مباشرةً مشوقاً بالرغبة في رؤية تلك الأوراق، وهو الأمر الذي لم يحدث سريعاً كما كنتُ أتوقع، فقد دخلت علينا في الصالون المعتم الأضواء امرأة ترتدي ثياباً مزركشة بألوان فاقعة، ومنها كانت تفوح عطور قويّة الرائحة، ولها ملامح نساء الأمبرورو، كانت تنقص وجهها الأوشام كيما تصبح واحدة منهن، عندما تحدّثت بدت لكنتها مختلفة، حتى حسبتها تتحدّث لغةً أُخرى.

طلبت منّي كوليتا البقاء بإشارة من يديها عندما نهضت من المقعد العتيق الذي كنتُ أجلس فيه، قريباً من مدخل الغرفة المظلمة نسبياً بفعل الستائر الثقيلة المنسدلة على جميع نوافذها، قالت موجّهة حديثها للمرأة: "ربّما عليك أيضاً أن تجلبي بعضاً من الحظّ السعيدة لولدي هذا". ردّت المرأة بحسرة وهي تقول إنّها تتمنّى لو كان بمقدورها فعل ذلك، لكنّها في النهاية

ليست سوى مجرد قارئة حظوظ مكتوبة منذ البداية، ولا تستطيع حتّى تغيير حظها التعيس في هذه الدنيا، ولا شيء لها سوى الصبر، ولا شيء غيره.

– أرينا ما لديكِ اليوم وليته جميل مثل المرّة الفائتة، فقد أتى ابن أختي هذا كما توقعتِ أنتِ مجيء شخص مهمّ إلى هذا المنزل.

شدّت السيدة العجوز اهتمامي بكلامها الأخير، ما ذكرته عن تنبّؤ السيدة بقدومي، وأصبح نظري مركّزاً عليها وهي تفكّ أكياسها الصغيرة كيساً وراء كيس، والهدوء يسود المكان، حتّى قطعته هي بأن طلبت عود ثقاب كيما تشعل به ناراً صغيرة من أجل البخور.

– هل يدخّن السيد حتى لا تُتعب السيدة العجوز مفاصلها من أجل أمرٍ تافه مثل هذا.

قالت موجّهةً كلامها إليّ قبل أن أجيبها بأنّني لا أدخن وبالتالي لا أحمل علبة كبريت، نهضت السيدة العجوز وأخذت تتذمّر وهي تبحث بين أكوام الأوراق المتراكمة على طاولة في نهاية الغرفة، قبل أن تعود وهي تقول باستياء:

– أنتِ تدينين لي بعلبة كبريت، عليكِ أن تكوني جاهزة على الدوام؛ في المرة المقبلة لن أعطيك قشّة واحدة إن نسيتِ هذه العلبة، والآن أشعلي البخور لنرى ماذا لديكِ.

وكأننا في معبد، أخذت تفعل كلّ شيء ببطءٍ، فتحت حقيبتها وأخرجت ثلاثة أكياس صغيرة، من الكيس

الأول أخرجت أعواداً صغيرة وضعتها على الطاولة، رشّت عليها مسحوقاً أخرجته من أحد الأكياس، ثمّ أشعلت عود ثقاب فعمّت المكان رائحة زكيّة لم أستنشق مثلها في حياتي، بعد ذلك فتحت الكيس الثالث الذي كان ممتلئاً بأصداف صغيرة طُليَت بألوان زاهية، ألقت بها على الطاولة ثمّ أخذت تتمتم بكلمات غريبة.

نظرتُ إلى السيدة فرأيتُ اللهفة لما ستقوله المرأة يبرق في عينيها، وأنا أيضاً وجدتُ نفسي بطريقة لاإرادية، متلهفاً أيضاً لسماع ما ستنطق به بعد أن تكفّ عن تمتماتها وتفتح فمها بالكلام.

تكلمت بعد أن مرّت دقائق ثقيلة، كأنّها ساعات من فرط الرغبة في معرفة ما ستقول، لكنّها لم تستطع أن تكمل ما بدأت تنطق به، فقد بدأ أحدهم يطرق الباب.

أصرّت كوليتا عليها أن تواصل كلامها لكنّها لم تفعل، وانزاح الستار أمام الطارق الذي مع ظهور وجهه مثل شبح تحت نور الغرفة الخافت، تبدّلت ملامح كوليتا إلى الفرح والحبور، وقد أخذت تعاتبه بحنان وهي تطلب منه أن يجلس ومن المرأة أن تنتظرها في الغرفة الأخرى، بعد ذلك تأوّهت كأنها قد نسيت شيئاً شديد الأهمّية، تحدّثت إلى الرجل قائلة:

– كيف نسيتُ أن أخبرك أنّ أركانجلو بيننا هنا في واو، ورغم أنه كان بعيداً لسبب ما ساقته الأقدار أخيراً إلينا ليُدخِل إلى قلوبنا الفرح...

بعد ذلك التفتت إليّ لتقول هذا هو:

– عمّك باسيلي، ربّما عليك أن تسمعه يغنّي يوماً حتّى تحبّه أكثر.

وكأنها خمّنت أنّني أسأل مَنْ يكون هذا الخواجة من بين أعمامي، أضافت تقول وهي تطلب مساندةً منه:

– أولست عمّه الخواجة باسيلي أم لديه عمّ آخر غيرك هنا!

– إنه كذلك ولست أفشي سراً إن قلت إنّني إنّما أتيت إلى هنا من أجل أن ألتقيه، وقد تعبت حتى أهتدي إلى أنه في هذه الجنّة، كان عليّ أن أفكر في القدوم إلى هنا من البداية.

تحدّث باسيلي موجّهاً كلامه إلى السيدة، بعد ذلك التفت نحوي وأضاف يقول لي:

– لقد كبرت حتى إنني لم أستطع التعرّف فيك إلى الباكي الذي كنته، هذا هو الجميل في الحياة، أننا جميعنا نكبر، لكن المؤسف أنني سمعتُ أنك لا تزال مثلي وحدك، أنا فاتني القطار لكنك لا، لذلك أنصحك بأن تركب القطار القادم...

تجاهلتُ ملاحظته بخصوص عدم زواجي، لم أقل أيّ شيء بخصوصه، أخذته كأمر يدخل ضمن اهتمامه بي لا أكثر، وهو كذلك لم يمضِ كثيراً في ذلك الدرب الوعر من الكلام.

طوله فارع وصوته عذب، بحيث قلت في نفسي هذا هو الكروان إذاً، وشعرتُ ببعض الارتياح لأنّه وفّر عليّ عناء البحث عنه، الأمر الذي كنت أعتمد فيه كثيراً على

تعبان، وهنا تذكّرت أنّني لم ألتقِ تعبان منذ أن خرج من المستشفى وتركني بين الأقارب، في أيدٍ أمينة كما قال.

سوف أذهب إليه، قرّرتُ، لكن كان عليّ الانتظار قليلاً، حيث طلبت منّي السيدة ذلك؛ سوف تعدّ لنا بعض الخضار مع لحم صيد مجفّف، من أجل مباركة اللقاء بيننا...

– فليكن بينكما ملحٌ وخبز.

هذا ما قالته قبل أن تخرج إلى المطبخ لتعدّ الوجبة المهمّة بنفسها، لنجد نفسينا وحيدين ننتظر، تبادلنا الحديث في كلّ القضايا، من الطقس وصولاً إلى المدينة، كيف كانت وأين صارت؟... تحدّث هو حول كيف كان والده يريد له أن يصير طبيباً، حتّى يتخلّص من عقدة أنّه كان يُنادى طوال حياته بمساعد طبيب لكنّه قاوم الأمر بشدّة رغم الضغوط الهائلة التي وقعت عليه من الأهل وحتى بعض الأصدقاء، لأن رغبة جارفة كانت تشدّه إليها أكثر من أيّ اتّجاه آخر.

واصل الكلام فيما تحوّلتُ إلى أذن تصغي فقط: عاقبني أبي بأن عرقل رغبتي في الالتحاق بمعهد الفنون في الخرطوم، هناك كنتُ سألتقي بجميع الفنانين الكبار، وهو الأمر الذي لم يتحقّق حتى الآن، رغم أنني قضيت كلّ حياتي محاولاً جمع المال من دون جدوى.

بعد ذلك عرّج ليوضح لي أنّه غير نادم، بل وينتابه في بعض الأحيان شعورٌ بأن ذلك ربما كان أفضل، لأنّ السعي إلى بعض الأحلام أجمل من تحقيقها، وأنه في

سبيل حلمه هذا حقق الكثير من الشهرة والصيت، لدرجة أنّه لا يدري هل كان له أن يحقّق نفس الرضى عن النفس لو التحق بالمعهد، وذلك هو العزاء الذي جعله طوال الحرب الطويلة متمسّكاً بالحياة رغم شظفها وقحطها، لدرجة أن الموت أصبح الخيار المفضّل بالنسبة للكثير من الزملاء الذين ماتوا مبكراً، قبل أوانهم وأسرع من اللازم كما يخيَّل إليه في بعض الأحيان.

كنتُ مستمعاً دون رغبة في الكلام، والحقيقة أنّه ليس لديّ من الذكريات والتجارب ما يمكن أن أجاريه به، كما أنه كان رائعاً جداً ولبقاً بحيث لم يعد إلى ذكر شيء قد يزعجني طوال ما بقي من الحديث، ولم يتطرّق أبداً إلى حياتي الخاصّة ولماذا لم أتزوّج، كما لم يذكر طوال الوقت شيئاً عن أبي حتّى ظننته نسيَ أمره تماماً.

طال انتظارنا حتّى أخذ الجوّ يبدو داكناً خلف الستائر في الخارج، وانعكس ذلك علينا فشعرنا بحاجة إلى ضرورة إشعال مصباح الغرفة، لكنّ برودة لذيذة تسرّبت من النوافذ بثّت الكسل فينا فبقينا مسمَّرين رغم ذلك في مقعدَينا. وفي النهاية تمكّن الجوع منّي.

ظهرت كوليتا تحمل صينيّة مليئة بأكثر ممّا وعدَتْ وألذّ ممّا توقعتُ. كالعادة سكت جوعي بمجرّد أن ظهر الطعام أمامي لكنّني استطعتُ مقاومة تلك العادة السيّئة، التي ظلّت تسبّب لي حرجاً في كلّ المناسبات

التي أُدعى إليها، لدرجة أنّني أضطرّ إلى تجويع نفسي حدّ الصيام تفادياً لحدوثها.

أكلتُ بنهمٍ على غير عادتي والسبب شيءٌ لم يكن في حسباني أبداً، طبق الشطة الخضراء التي خدعني صغر قرونها وجذبتني خضرتها الجميلة وهي ترقد على قطع اللحم المجمّر على فحم، لكن من القضمة الأولى علمتُ أنّ المنظر قد خدعني.

عطستُ مرّات متتابعة تحت ضحكهما قبل أن يطلبا منّي شرب كوبٍ من الماء البارد حتّى تزول الحرقة، ليذكرا بعدها أنّ المظاهر خدّاعة جداً في ما يخص خطورة الأشياء، وقالت كوليتا بتباهٍ إنّ شطة الجنوب هي الأكثر خطورة بين كلّ الأنواع لكنّ فوائدها الطبّية كثيرة ولا تُعدّ.

بالنسبة إليّ كانت الفائدة الوحيدة هي الأكل بشراهة، كأنّني جُوِّعت اليوم كله من أجل تلك الوجبة، فبينما كنتُ أحاول إخماد المرارة الحارقة كالنار في فمي وبلعومي، وجدتُ نفسي ألتهمُ صينيّة الطعام حتّى النهاية وقد رميت على الحائط بكل تحفظاتي تجاه الأكل، التي اعتنقتها قبل سنوات إثر نوبة خوف من أن يزيد وزني فأكون صاحب كرش مترهّل.

وصينيّة الطعام ما تزال أمامنا وإنْ كنا قد فرغنا من الطعام، حيث انشغلنا بحديث رتيب أمام الفتات الباقي على المائدة مثل أشلاء معركة، دخلت علينا المرأة بعد أن نسينا أمرها تطلب الإذن في الانصراف، لأنّ الوقت

قد تأخر ولديها مشاوير أخرى تريد إنجازها، سمحت لها كوليتا بالانصراف بعد إلحاح من جانبها وبعد أن قطعت وعداً بأن تمرّ بالمنزل غداً، لكنّ حركة غريبة بدرت منها قبل أن تنصرف، وجّهت جملة مبهمة نحوي:

– أمّا أنت أيها السيّد فطالعك يحتاج إلى شجاعة منك!

فردّت كوليتا مازحة:

– أبعدي سحرك عنه.

الاثنين ٢٩ يوليو ٢٠١٥

الصور التي أرسلها رونالدو رائعة، شعرث بأنني أراها لأول مرّة، ربما ذلك يعود إلى حقيقة أنّها أوّل شيء يقع على يدي في أول خروج لي منذ أن سقطتْ فريسة المرض، وجدتُ الصور تطلّ برأسها فور فتحي الإيميل، وبالقرب منها رسالة نصّية مقتضبة: "استمتع بأيّام زمان!"

شاهدتُ الصور بنهم كأنّي لم أرَها من قبل، صور أعياد الكريسماس، أعياد الفصح، مناسبات العماد، لقطات تعود إلى حفلات في المدرسة، حزمٌ من الصور التهمتها دفعة واحدة كأنّني جائعٌ منذ أيّامٍ، بعد ذلك وجدتُ متّسعاً من الوقت كيما أمرّ على الرسائل التي لم أستطع قراءتها طيلة مرضي.

كانت جميع الرسائل مكرّرة تقريباً، بعضها من المكتب، وهنالك دعوات لرحلات سفاري وأُخرى لقضاء عطلات صيفية من أصدقاء اسفيريين، وإعلانات تروّج لمنتجات فاخرة بأسعار مخفوضة؛ أحذية جلدية، ربطات عنق، ساعات سويسرية، عطور فرنسية، مزيلات عرق، ماكينات حلاقة، محفظات نقود، أقلام حبر سائل، وأكسسوارات موبايلات فاخرة تبدو جنونية الثمن، انغمستُ في تفاصيل تلك المنتجات المعلن عنها من شركات وراء الحدود، ربّما لأنها تعد بإيصال المنتجات إلى العميل أينما كان.

جرّني ذلك الانغماس في الموضة إلى تذكّر نجوى مرّةً أُخرى في أقلّ من أسبوعين، وتذكّر حفلات الخميس معها في نادي الزوارق، وكيف كانت لا تكفّ عن التذمّر طوال الطريق من المحطّة حتى النادي، وجُلّ شكواها هي أنّني لا أعطي نفسي ما تستحقها من العناية والاهتمام، كانت تشتكي من كلّ شيء أرتديه تقريباً: أحذيتي، بناطيل الجينز التي لا أنزعها أبداً، وتبالغ في شكواها فتقول إنّ الكلاب الضالّة قد تتبعنا يوماً ما بسبب الرائحة التي تفوح من جواربي. وتصبّ في أحيان أخرى اللعنات على أصدقائي من الشيوعيّين متّهمة إيّاهم بإفسادي.

كنتُ لا أستطيع إسكاتها عندما تنفجر غاضبة، تصمت وحدها كأنّها عاصفة تهدأ فقط نتيجة تلاشي قواها الداخلية، استمرّت الحال هكذا حتى اتّصلت بي ذات يوم لتخبرني أنّنا سوف نخرج في مشوار، كان الوقت مساءً والموسيقى تصدح في كلّ مكان.

انتظرتُها في طريق الحاج يوسف الذي يتفرّع بعضه إلى محطة الخرطوم المزدحمة دوماً، ويذهب أيضاً إلى أم درمان بخطوطها المختلفة التي تفوق الستة، ظللتُ واقفاً حتّى دعاني صوتها من نافذة تاكسي على الجانب الآخر من الطريق، طلبت مني الجلوس بإشارةٍ من يدها دون أن توضح إلى أين نتّجه فتخيّلتُ أنّها طلعة الخميس، ولأن مزاجها عكرٌ لم أتفوّه بسؤال، فضّلت أن أنتظر حتى يصفو مزاجها.

أمرتَ السائق دون أن تتفرّس إلى ملامح الفضول في وجهي، ولو فقط لأعرف لماذا الخروج مبكراً عن العادة، حيث جعلتني أترك كلّ ما في يدي من أجل أن أخرج إليها.

– إلى الإفرنجي إنْ سمحت.

– الإفرنجي؟!

أجابتني باقتضاب:

– طبعاً.

عندما وصلتُ كنتُ مثل طفل يتبع أمّه ممسكاً بثوبها عشيّة العيد، مع فارق أنّه يمتلك حقّ الإلحاح في طلب بعض الأشياء ورفض أُخرى، لم تعطني ذلك الترف طوال جولتنا، كان كلّ شيءٍ بيدها.

أخذتني إلى صالون حلاقة، قالت لمصفّف الشعر الذي وجدناه جالساً أمام المرآة ينتظر الزبائن بابتسامة مبتذلة وفاترة في وجهه:

– اكنس كومة الخيش هذه عن وجهه حتى ترى بشرته الشمس من جديد، بعد ذلك اختر من ذوقك ما تشاء، المهمّ أن تكون تصفيفة تناسب شخصاً لديه حبيبة تفكر به وتهتمّ لأمره!

عدتُ إلى المنزل شخصاً مختلفاً، تركتُ بنطال الجنيز الذي كنتُ أرتديه عندما خرجتُ من المنزل، صار شعري حليقاً بعد سنوات من إطلاق سراحه لينمو كما يشاء على طريقة الرستات، لكن مع بعض الاهتمام به من أجل تفادي الوقوع في المشكلات مع بعض الأساتذة.

في اليوم التالي لم يتعرّف إليّ محمّد الفوراوي صاحب الدكّان، عندما ذهبتُ إليه لأردّ النقود التي أخذتها منه في اليوم السابق، وجدته قد أخذ على عاتقه أن يضحك ويسخر منّي قائلاً: لا شك في أنّ ما فشل في القيام به جميع الرجال نحجت فيه بنتٌ ما، ليتنا نعرفها حتّى نقدّم شكرنا لها.

وإمعاناً في السخرية رفض أخذ النقود منّي وهو يقول: ما دمنا لن نجدها من أجل القيام بذلك، أقترح أن تدعوها إلى المرطبات كنوع من الشكر والتقدير من جانبنا، ثمّ أضاف بصوت عالٍ ما تخيّلتُ أنّ الجميع يهمسون به دون أن يملكوا جرأته:

– كيف سوف تكون دكتوراً بتلك الضفائر التي تجعلك مثل درويش أو مجنون.

وعدته بإيصال شكرهم إليها من أجل ما قامت به لأجلهم. كنّا قد اتّفقنا على زيارة بعض الأصدقاء في اليوم التالي، والذهاب بعد ذلك إلى بحري من أجل التقاط الصور في استديو العشاق الشهير مثلما يفعل جميع الشباب عندما يفتحون صفحات جديدة في حياتهم، لكنّنا لم نفعل أيّاً من الأمرين ولم أبلغ تحيّاته كذلك.

وذلك لأنّ الدخان تصاعد فجأة في سماء المدينة بينما كنا نقترب من الجسر، ورأينا جنوداً يوقفون المارّة ويطلبون منهم إبراز بطاقات الهويّة. كانوا يطرحون أسئلة مقتضبة عن السكن والوجهة قبل أن يتركوهم،

لكنّ الأمر لم يكن كذلك مع الجميع، فقد كانوا يحتجزون على الفور مَنْ تظهر على ملامحهم لمحة من دارفور، وقد احتجزوا بتلك الطريقة الكثيرين لمجرّد أنّ رائحة الإقليم البعيد كانت تفوح من بين قسمات وجوههم.

عادت بنا العربة إلى الوراء بعدما أصعد الجنود بها عنوةً عدداً كبيراً ممّن تقطّعت بهم السبل في تلك الفوضى، ومنهم سمعنا أقوالاً متضاربة عمّا يجري حيث زعم بعضهم أن الجيش تمرّد في أم درمان، وسمعنا آخرين يقولون إن القتال الآن اقترب من القصر نفسه دون أن يعرف أحد مَن يقاتل مَن، وقال رجلٌ كان ينظر إلى هاتفه دون جدوى محاولاً جلب شبكة الهاتف التي اختفت دون إنذار:

– إنّه الدكتور قد وصل.

عندما وصلتُ إلى المنزل بعد أن تخطيتُ عدّة مطبّات ونقاط تفتيش، بعضها مرتجل من صنع شباب الحيّ الخائفين على بيوتهم، وجدتُ كلّ قنوات الدنيا قد توجّهت بتغطيتها إلى أم درمان، كان قتالاً يدور في شوارعها بين جنود الحكومة ورجال ملثّمين دخلوها في وضح النهار، والدكتور الذي وصل لم يأتِ ليعالج بل ليحارب، أخذت محطات الأخبار تستضيف من عواصم مختلفة رجالاً ينطقون باسمه في محاولة لفهم ما الذي يحدث، أمّا أنا فقد توقفتُ كثيراً عند اسمه الذي بدا ذا جرسٍ يليق بفنّانٍ أو كاتب، أكثر منه برجل يخوض في وحل الحرب وأهوالها.

بعد أسبوع من ذلك أخذت الحياة تستعيد روتينها، وعاد الناس إلى التزاحم في المحطات كالعادة، والباعة المتجوّلون إلى إلحاحهم بمنتجاتهم الصينيّة الصنع في الأغلب، أمّا الحكومة فقد أقامت معرضاً لغنائم الحرب وضعت فيه ما قالت إنّها أسلحة استولت عليها بعد هزيمة مَنْ سمّتهم بالمرتزقة، فتوافد الكثيرون حتى من خارج العاصمة جرّاء الدعاية الكبيرة التي تورّطت فيها إذاعة وتلفزيون الحكومة، لكن الوفود عزفت عن القدوم بعدما انفجرت قذيفة في وجه أحد الفضوليين نتيجة تجرّئه على العبث بإحدى القطع غير المنفجرة، تخيّلتُ وقتذاك أنّ الذين نظموا ذلك العرض على عجل غفلوا عن أن يكتبوا "ممنوع اللمس" أمام أيٍّ من القطع المعروضة، مثلما يُكتب في أقفاص الحدائق دائماً مهما كانت طباع الحيوان الموجود بالداخل سواء أكان وديعاً أم متوحّشاً: "لا تطعم هذا الحيوان".

في ذلك اليوم خرجتُ صباحاً، أبكر من العادة، مررتُ بالكليّة أولاً، بعد أن وجدتُ جميع الأصدقاء الذين كنتُ قلقاً عليهم طوال أيّام حرب الشوارع تلك، عزمت على أن ألتقي بنجوى التي لم ألتقِها قطّ منذ أن افترقنا قبل اندلاع الأحداث بيومٍ واحد، وكانت آخر مكالمة منها تشير إلى أنها قد اتّصلت مراراً قبل أن تنقطع شبكات الاتصال، لكنّ الضجيج حينذاك حال دون أن أنتبه إلى اتّصالها، بل إنّي لم أنظر إلى الهاتف الّا بعد أن خرجت من الزحام، ليتحتّم عليّ الانتظار أكثر من سبعة أيّام

حتّى ينجلي الدخان الذي لبّد سماء العاصمة، طوال المدّة التي عاد فيها الناس إلى الجلوس حول أجهزة التلفاز حيث لم تنقطع الكهرباء لحسن الحظ.

لكنّ هاتفها استمرّ مغلقاً بعد أن انفتحت هواتف الجميع، لم ترد إليّ منها مكالمة، كما أن هاتفها أخذ يعطي إشارة بأنّه خارج نطاق التغطية، لذلك اتّخذتُ قراراً بأن أقطع الكبري وأذهب إلى منزلها وكانت قد دلتني عليه من بعيد في مرّة من مرّات تسكّعنا التي تأخذ كلّاً منا في اتّجاه الآخر، ولا سيما إذا صادف اليوم السابق للتسكّع وقفة العيد التي لا ينتبه فيها أحدٌ لأحد، ويكون الجميع مهرولين من أجل عيدهم لا يعنيهم شيء غير أنفسهم والغد الجميل الذي ينتظرونه.

كانت خريطة المنزل مشوّشة في رأسي قليلاً، لذلك قلتُ لنفسي مشجّعاً إيّاها على الخوض في هذا المشوار حتى أطرد التردّد عنّي: ليس عليك سوى أن تركب بصات الشقلة أو الصالحة لتنزل في لفة سراج ثمّ تتّجه إلى الشرق تجاه النيل، سوف تجد زقاقاً ضيّقاً يفضي إلى بيت أمامه "سبيل" يحتوي على عدّة أزيار، وبالقرب منه رجلٌ يقلب موجات الدنيا في مذياع قديم بين يديه دائماً، إنّه والدها الذي يفتخر جمّ الافتخار بحقيقة قراءته الصحف بأربع لغات عالمية هي محصّلة تسكّعه في جهات مختلفة من العالم عندما كان شاباً، أي قبل أن يقرّر العودة والاستقرار في البلاد التي لا يتحرّج من إطلاق اللعنات عليها عندما تشتدّ عليه المشكلات

وتضيق الحياة من خناقها، لكنّه سرعان ما ينقلب إلى مدحها مبدياً المقارنات التي تصبّ في مصلحتها بمجرّد أن تنقلب الظروف إلى الأفضل وتتحسّن.

تذكّر أنّها قالت لك ذلك المساء، قبل أن تفترقا وأنت تترنّح من الخمر الذي شربته في وقت مبكّر، وبدأ يصعد إلى رأسك ويربط كما يقولون في وصف تأثير مشروب العرق المزيّف، أي كلّ عرق لا يمتّ إلى البلح بصلة: إنّه رجلٌ غريب الأطوار نوعاً ما...!

وذلك الوصف في رأسي قطعتُ الجسر مجتازاً أكثر من نقطة تفتيش نُصبت على عجل، لم أتعرّض للسؤال أبداً فقد كان الجنود يوقفون العربة لدقائق فقط تسمح لهم بالتأكد ممّا إن كان ثمّة شخص بملامح تنتمي إلى دارفور داخل السيّارة، ثمّ يأخذونه إلى ضابطهم الآمر قبل أن يطلبوا من السائق الذهاب دون الراكب إنْ لم يكن محظوظاً... وسط تلك المتاريس كنتُ أفكّر كيف حالها يا تُرى!

وفكرتُ أنه سيكون جميلاً لو خرجنا معاً وسط المتاريس لأرى الجانب الآخر منها، لا أدري لماذا خطر ذلك الأمر على عقلي، كانت فرصة لأراها بشكل مختلف، لكن عند وصولي تمنّيتُ لو مكثتُ في المنزل دون أن أخرج.

ربما كان عليّ أن أفقد عقلي في ذلك الوقت، هكذا أفكّرُ الآن.

لم أخطئ المنزل، لكن أخطأت التوقيت مثلما يحدث دائماً مع البطل في الأفلام الهندية، مع فارق أنّ المخرج في تلك الأفلام دائماً ما يجد طريقة لإصلاح الأمور في نهاية المطاف من أجل أن يعود الجميع سعداء، وإلّا فلا مفرّ من أن يهشّموا شاشة العرض قذفاً بالقوارير الفارغة. كانت عربة لوري أوستن كبيرة تقف أمام المنزل ومجموعة من العمّال مشغولون بنقل الأثاث من داخل المنزل.

ومن بين الوجوه الكثيرة في المكان لم أستطع التعرّف إلى شخص بعينه، رغم ذلك تشجّعتُ واقتربت لأسأل رجلاً كان يتصبّب عرقاً، وقد جلس يأخذ قسطاً من الراحة تحت الظل الصغير الذي صنعه عبور الشمس إلى الجهة الأخرى من الحائط:

– ما الذي يحدث؟

نظر إليّ باستغراب حتى تخيّلتُ أنّني طرحتُ عليه سؤالاً غبيّاً، مثل هل إسماعيل الأزهري هو مَن رفع العلم يوم الاستقلال، ثمّ قال بعد ذلك وهو ما يزال في حيرته من أمري:

– تماماً، فالأغراض تُنقل كما ترى.

ثرثر لي كثيراً عن أنّ الرجل الذي طاف العالم، قد قرّر نفض غبار الإهمال عن جنسيّته الأجنبيّة، بمجرّد أن عاد الهدوء إلى المدينة وأصبح مهاجموها فلولاً متقطّعة الأثر، لم يعد البقاء محتملاً بالنسبة إليه، لقد استاء من دخول الجنود البيوت بحثاً عن بقايا العدوّ، وقد أقدموا

على جلد الصبيّ بائع الجرائد عندما لم يجدوا مَنْ يوسعونه ضرباً، اهتزّت مشاعره جداً من الدم الذي لوّن قميص المسكين، دون أن يستطيع فعل شيء لردّ السياط عنه، والذي آلمه أكثر أن الأمر وقع داخل منزله هو.

بالنسبة إليّ، ضاع كلّ شيء مع الكلمات الأولى التي تفوّه بها الرجل المسترخي على الرمل بسروال مثسخ وأسنان صدئة بالتمباك، وأحسستُ بفظاعة الأمر عندما تحسّستُ رأسي الذي كان حليقاً من أجل طلعات مساءات الخميس، رغم ذلك استجمعتُ أطرافي طوال أيّام على أمل عودتها سريعاً بعد أن تهدأ الأمور نهائياً، لأنّه لا يمكن لعاقل أن يترك الجامعة في سنواتها الاخيرة من أجل بداية الدراسة في مكان آخر مع ذكريات سوف تجري خلفه كسيل من الأشباح.

كنتُ على يقينٍ طوال الأشهر الأولى من سفرها بأنّها لا محالة سوف تعود في أقرب فرصة، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث أبداً، ومضت أشهر طويلة دون خبر منها، وعندما تلقّيتُ أولى رسائلها كان الأمر بالنسبة إليّ أشبه بقطع حبل قارب أكثر منه إعادة اتّصال.

أخبرتني أنّها سوف تسافر أخيراً إلى بريطانيا، لكنّها قد تعود بعد خمس سنوات إذا ما سارت الأمور كما تريد، ولم تذكر شيئاً عن الجامعة ولا عن حياتنا الخاصّة، كانت رسالة مقتضبة مثل برقيّة عسكريّة، بعد ذلك استمرّت رسائلها في القدوم بانتظام في البداية، ثمّ

أصبحت تأتي متقطعة وعلى فترات متباعدة حتّى توقّفت فجأة قبل أن أتخرّج بسنة أو أقلّ، لا أذكر تماماً.

لم أنتبه للأمر في البداية إذ غرقتُ مثل أيّ طبيب في دوّامة "الامتياز" ومحاولة إثبات الذات في حياتي الجديدة، التي دخلتها بعد سنوات من التأجيل بسبب الرسوب في الامتحانات تارةً وتجميد الدراسة عمداً في أغلب المرّات، حتى انتبهت إلى أن إخوتي الصغار قد أخذو يلحقون بي في الجامعة، لأتّخذ قراراً بوضع حدٍّ لذلك وهكذا صار وقتي ينتهي بين المكتبة والمستشفى حتى تخرّجتُ.

وقد مضيتُ على ذات الدرب من نسيان كلّ شيء طوال فترة "الامتياز" والسنوات الأولى من عملي حتى استقراري في مستشفى العيون، لأجد أنّ النسيان قد جرفني بعيداً إلى درجة أن نسيتُ أنّ عمري يتقدّم دون أن تعود هي، ودون أن أستطيع إقامة علاقة جديدة كأنني ألتزم بعهد قطعته لي بالعودة في أيّ وقت مثل اللص.

كان شعور من ذلك القبيل ينتابني دائماً عندما أكون مدعوّاً إلى منزل أحد الأصدقاء، وقد أصبحوا جميعاً ينسلخون من حياة العزوبية الواحد تلو الآخر، سنة أثر أخرى، حتى وجدتُ نفسي في النهاية أساهر وحدي لساعات متأخرة خارج المنزل، لأنّ الجميع يذهبون إلى منازلهم من أجل مقاسمة زوجاتهم لحظات ما قبل النوم، عكسي أنا، حيث أعود من أجل الارتماء على الفراش

وعيناي مغمضتان بالكامل تقريباً حتّى لا تداهمني الكوابيس التي كثيراً ما تظهر فيها، وقد اتّخذت هذه العادة أسلوباً بعد أن قرأتُ ذات يوم مقالاً عن اضطرابات النوم ذُكر فيه الإرهاق الشديد كأنجع وسيلة لجلب النوم العميق.

تذكّرتها هنا حيث لا ذكريات تجمع بيننا، ويرجع ذلك إلى حدثين وقعا معي اليوم، أتخيّلهما وراء جرّ الذكريات بتلك القوّة إلى رأسي كأننا افترقنا أمس، لقد وقعا صدفةً دون رابطٍ بينهما، فبعدما شربتُ الشاي صباحاً لم أحضر إلى وسط المدينة رأساً كالعادة، بدلاً من ذلك توجّهتُ إلى النهر الذي نزلتُ إليه عبر ممرّ ضيّق يقع خلف قصر الحكومة، وفي رأسي فكرة مشوّشة عمّا أريده بتلك الالتفاتة المفاجئة صوب الشاطئ وفي ذلك الوقت المبكّر على التنزّه.

كنتُ أنظر إلى النهر مأخوذاً بذكرياتٍ أثارتها درّاجة مائيّة فائقة السرعة يقودها رجلٌ نحيل، حليق الشعر إلّا من خصلة طويلة تلاعبها الريح، فيما أخذت الموجات القوية المتولّدة عن الآلة الهادرة بصوتٍ عال، تضرب الصخرة التي كنت أجلس عليها حتى أحسستُ معها أنني أجلس مرّةً أخرى على حافة النيل الأزرق متفرّجاً على الأجانب الذين يتسابقون بالدراجات المائيّة في مساءات الخميس، جيئةً وذهاباً من جزيرة توتي وإليها، مخلّفين وراءهم صخباً من الأمواج التي تضرب أقدامنا التي تكون متشابكة تحت ماء الشاطئ الضحل.

ظللتُ على تلك الحال حتّى ضربت يدٌ على كتفي بخشونة قذفت بي خارج الذكرى الجميلة، وقبل أن ألتفت لأرى مَنْ يكون، جاء صوته إلى أذني مألوفاً كأنّني سمعته من قبل، لكن الأمر الذي جعلني أشعر به مألوفاً في الواقع هو ما قاله، ولم أعرفه عندما نظرت إلى وجهه الذي يشبه وجوه جميع رجال الشرطة الذين التقيتهم في حياتي، خرقةً من الصرامة والتعب:

– دا زمن المساطيل يا زول!

قال ذلك ثمّ أضاف إذ لاحظ حيرتي:

– بنفتش ناس الحشيش، دا وقتهم المفضّل.

هنا تدخلتُ لأعتذر قائلاً:

– أنا جديد وجيت هنا عشان أست...

– نفس كلام كلّ المساطيل: عشان أستمتع بالبحر.

قاطعني الرجل بسخرية لكنّه استدرك إذ لاحظ الدهشة تطفو على وجهي:

– يمكن تنصرف الآن، شكلك ظاهر محترم بس دا آخر مرّة.

ثمّ أضاف بلهجة آمرة:

– واضح يا "زول".

انتهت نزهتي على الشاطئ سريعاً، لكن رأسي عاد إلى تذكّر النيل الأزرق ونادي الزوارق مساءات الخميس، تخيّلتُ "لو أنّها كانت معك ما كنت لتعود أدراجك إلى الوراء نزولاً عند توجيهات الشرطي أو خوفاً من الزجّ بك في السجن، كانت ستحاول أن تشرح له أن النهر

للجميع بمن فيهم المساطيل، متجاهلة كلماتك لها بأن الشاطئ طويل، ويمكنكما بالتالي الجلوس على أيّ صخرة أُخرى".

ما إن ابتعدتُ مسافةً قليلة من النهر حتى عادت إليّ الذكريات مرّة أُخرى، وذلك عندما وجدتُ نفسي أقف أمام المستشفى الذي كنتُ طريح عنابره، فقد رأيتُ إستر واقفة بين ممرضات التفَفْنَ حول عربة إسعاف بدا أنّها وصلت لتوّها. تذكّرت أنني وعدتها أثناء تجوالنا في المستشفى بالالتقاء في القريب العاجل، فأسرعتُ من وقع خطواتي نتيجة شعوري بالذنب الشديد، لعدم تمكّني من الوفاء بالوعد الذي قطعته لها.

مضت أيّام دون أن أسعى للقائها لأنني كلّما فكرتُ في لقائها كان ذلك يزعجني، وتصير ملامح وجهها كشبح يتسلّل إليّ ليعذبني، فـ"الشامة" على خدّها الأيمن كانت تجعلني أشعر كلّما رفعتُ الهاتف لأتّصل بها، بالزمن يعود إلى الخلف ليعيد نفسه بكلّ ما فيه من تفاصيل لا أحبّها، فأهرع إلى ضغط زرّ إلغاء الاتصال فوراً، والانشغال عوضاً عن ذلك بلعبة المتاهة التي أجدها تشبه حياتي كثيراً.

بعدما أكملتُ مشاهدة حزمة الصور داخل المقهى كان رأسي يشتعل بفكرة واحدة: هناك شيءٌ ما وراء كلّ تلك الأمور، ليس مصادفة أن تحدث كلّ تلك الأشياء في اليوم الأول من خروجي بعد المرض، ربّما ثمّة رسالة

عليّ الإصغاء إليها، ربما عليّ الإصغاء إلى ما كانت تريد المرأة "الودّاعيّة" قوله قبل أيّام عمّا يخبّئه القدر لي.

ضحكتُ على نفسي وأنا ألملم أغراضي خارجاً من المقهى، بسبب طريقة تفسيري للأمور على ذلك النحو الذي لم أعتده من قبل، وتوهّمتُ أنّ أحدهم قد أخذ يسخر مني: ها أنت ذا قد بدأت تؤمن بالخرافات مثل أهلك، لا فرق إذاً بين الطبيب والآخرين لديكم، فالجميع سواسية عند الخوف واليأس والرغبة. لكن ذلك الصوت الساخر تراجع وصمت كلّياً عندما ارتفع صوت الجوع في معدتي.

من ذلك الجوع الذي اشتدّ قرصه علمت أن الساعة قد بلغت الرابعة أو تجاوزتها بقليل، وذلك لأنني تعوّدت على حمية صارمة منذ أن نهضتُ من المرض، حتى أكتسب السعرات التي فقدتها بالإضافة إلى الشعور بالذنب تجاه شهيّتي المتناقصة دوماً، لدرجة أنّ الجميع أخذوا يلقون اللوم عليها في مرضي، ويقولون لي إن وزني خفيف مثل الريشة ولا يليق بطبيب.

عدتُ إلى المنزل مباشرة لأنه لم يكن هناك أحد لألتقيه، ولم تترك لي الذكريات التي أثقلت كاهلي مزاجاً حسناً لأذهب به إلى أيّ مكان آخر، لذلك كان عليّ أن أختار شوارع ميتة حتّى أصل سريعاً قبل غياب الشمس خوفاً من أن تقلق كوليتا، ولا سيّما أنّني لم أخبرها باحتمال أن أعود متأخّراً، الأمر الذي قد ينجم عنه امتناعها عن تناول الطعام في انتظار عودتي.

وجدتها تنتظرني لكن دون قلق، قالت لي بانشراح إنه فألٌ حسن أن تأكل أُولى ثمرات الحصاد مع عزيز لك، ثمّ أخبرتني أن الباذنجان الأسود الذي تناولنا سلطته معاً قد جُلب من مزرعتها عند ضفة النهر، بعد ذلك تحدّتني أن أجرّب الزراعة ذات يوم قائلة:

– سوف تجد الأمر رائعاً.

أجبتُها بأنني لم أفكر في شيء كهذا من قبل، لكن ربما عليّ أن أحاول اختبار شعور المزراع يوماً ما، ردّت عليّ ضاحكة ومتعجبة:

– هذا مبرّرٌ غريب!

عندما لمستُ فيها انشراحاً وصفاءً في المزاج حوّلتُ مجرى الحديث وسألتها مباشرة:

– متى سوف تأتي الفلاتية؟

وإبعاداً لتهمة أنني قد أكون معجباً بها أضفتُ قائلاً إن وجهها يطابق وجه امرأة كنا نشتري منها اللبن في الصغر. أجابت: ربّما تكون تلك والدتها أو امراة تمتّ إليها بقرابة، ثمّ أضافت: الأمبرورو لا يستقرّون أبداً، كأنّما السفر يسكن أقدامهم، ولأنّها منهم ربّما تكون سافرت فأنا أنتظر منها منذ أيّام عديدة بخور التيمان جالب الحظ السعيد. إنْ لم تكن سافرت إلى الشمال مع اشتداد الامطار هذه الأيام فإنها لا شك سوف تأتي قريباً، لكنّي أتمنّى أن تكون قريبة منّا تجمع عروق الأشجار النادرة في غابة ما، إن كان هذا هو الخيار

فسوف تطرق على الباب في أيّ لحظة، أضافت ذلك واثقة.

أمّا أنا فتمنّيتُ لو طرقتِ الباب في تلك اللحظة، حتّى أعرف ما إن كان الحظّ السعيد الذي تحدّثت عنه بعجالة يومذاك يمتّ بصلة إلى نجوى.

انطفأت الأنوار وأخذ صوت مذياعٍ يتسلّل إلى غرفتي ممتطياً هدوء الليل، وكالعادة في كلّ ليلة كانت الموسيقى عبارة عن زائيريات السبعينيات، التي تؤمن الإذاعات هنا بأنها الوحيدة التي تجلب الأحلام السعيدة وتضمن الاستيقاظ المريح. تمنّيتُ لو كان في متناول يدي الاستماع إلى شيء آخر، مثلاً أغنية تتحدّث عن الخيبة كأغنيات زيدان إبراهيم التي تشتكي دائماً من هجران الحبّ.

مع تسرّب النعاس إلى عيني تذكرتُ أنّ اليوم انقضى دون أن أمرّ بصديق مهمّ، وعدني أن ألتقيه من أجل أن نستمع معاً إلى أسطوانات عتيقة جُلبث من الكونغو بعد حرب "السبع عشرة سنة"، بعضها حفلات حيّة لزيكو "لانقا لانقا" وبعضها الآخر خطبٌ لـ"باتريس لومومبا" بالفرنسيّة التي لا أفهمها، وأشكُّ في أنه يفهمها.

لكن رغم ذلك تجده متحمّساً لإسماعها أيّ صديق يظهر في حياته، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تفهم أنّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ والده الشيوعي المتحمّس لأفكار أعظم قائد أفريقي – كما يحبّ هو أن يناديه دائماً – قد أطلق عليه اسم الرجل، حتى يضمن

له السير على طريقه البطولي لكنه لم يفعل ذلك، بدلاً من ذلك أصبح مجنوناً بجمع القصص والقصاصات التي تتحدّث عن اغتياله، بالإضافة إلى سماع خطبه التي لا يفهمها أبداً نسبةً لعدم إجادته أيّ لغة أجنبية.

الثلاثاء ٣٠ يوليو ٢٠١٥

ارتديتُ جاكيتي السوداء التي لم ألبسها من فترة طويلة، ورميت الشال الصوفي الأبيض حول عنقي لأشعر بالدفء، فقد كان الجوّ بارداً والرطوبة عالية إلى درجة الشعور بها تطعن في مفاصلي كنصل، لكنّ ذلك تغيّر في النهار عندما انقشعت السحب وخرجت الشمس حارّةً جداً حتى شعرتُ بجسمي يغلي من السخونة، وصار شكلي مضحكاً وسط الشارع لأنّي خلعتُ الجاكيت والشال معاً وحملتهما على يدي فيما كنت أتصبّب عرقاً، بينما الجميع يسيرون منتشين بملابس فضفاضة وبعضهم يختلس النظر إليّ ضاحكاً، لم أستطع احتمال منظري كثيراً فانزويت في كافتيريا صغيرة رُصّت كراسيها في الهواء الطلق تحت شجرة مهوقني عجوز، مكثتُ هنالك حتّى بردت الشمس، بعد ذلك عبرتُ جسر قرنق إلى الجهة الأخرى من المدينة.

أول ما رآني باتريس أطلق ضحكة مُجلجلة وهو يأخذني بالأحضان قائلاً: لا عليك، على الأقل انخدعت فتأنّقت، وجدته ينتظرني تحت مظلة قريبة من الجسر المبنيّ فوق مجرىً صغير دائم يصبّ في الجور، عليه أكثر من جسر ومعبر لأنه يقسم المدينة إلى اتّجاهين أو "مقطاعين"، شمال وجنوب، حسب لهجة الأهالي، وعلى جانبيه تنتشر البساتين ومزارع خُضرٍ وأشجارٍ كثيفة، تشكل غابات صغيرة يأوي إليها الكبار من أجل التنزّه،

ويصطاد فيها الأطفال الطيور والقوارض الصغيرة ويُقال إن الذئاب والثعالب بل وحتى النمور كانت تسكنها في وقتٍ ما، لكنّها جميعاً فرّت بسبب ضجيج المدينة التي ازدادت سكّاناً بعد اندلاع الحرب لتبقى نتيجةً لذلك حيوانات قليلة، قليلة الحيلة لتظفر، بالسيادة فيها ذوات الأجنحة دون غيرها من المخلوقات، حيث قسمت الطيور من غربان وصقور وغيرها من جهة والخفافيش من جهة أُخرى ساعات اليوم فيها بشكل مدهش، يجذب الخواجات المستعدّين للإهتمام بالأشياء الصغيرة جداً التي لا جدوى منها كما يقول الأهالي عندما يرونهم عصراً ممسكين بكاميرات هواتفهم النقالة من أجل تصوير اللحظات المدهشة: وقت تبادل الطيور والخفافيش أعالي الأشجار راسمةً بطيرانها مشهداً يشدّ كلّ قادمٍ جديد، ذلك أنه مع بدايات زحف المساء تبدأ مختلف أنواع الطيور بالتوافد إلى المكان أسراباً وجماعات، وبمجرّد ملامستها قمم الأشجار تنفجر في السماء مثل نافورة ألعاب ناريّة في ليلة مظلمة، أعداد هائلة من الخفافيش التي تحجب كثرتها السماء معلنةً بداية دوامها الذي يستمرّ إلى بزوغ الفجر، حيث تبدأ الطيور بدورها بترك الأشجار منطلقةً نحو السماء، لكنّه مشهدٌ يوشك أن ينتهي إلى الأبد، وقريباً جداً ربما، لأن جرّافات شركات البناء العمالقة قد تبدأ في أي وقت باقتلاع الأشجار الضخمة تدشيناً لمشروعات البناء التي يحاول الجميع في المدينة

إيقافها. ذلك ما أخبرني به باتريس وهو يعرّفني إلى بعض من الشباب الذين قال إنهم قد قرروا أن يحافظوا عليها بطريقة مختلفة، حيث يأتون كلّ مساء من أجل التقاط الصور للمشهد الرائع بغية إرسالها إلى الخارج، لتُنشر في المواقع التي ستتيح لها البقاء إلى الأبد لأنهم يئسوا وفقدوا الأمل من أنّ الحكومة ستفعل شيئاً ذا جدوى لإيقافه، بعدما سمعوا وتأكّدوا من أن أحد أبناء رئيس الجمهورية نفسه يمتلك عقاراً ضمن المباني التي سوف تشيّد، وبالتالي فإن محاولة جذبه بعيداً عمّا اقتنع به ابنه ليست سوى محاولة لفعل المستحيل، لكنّه قد يصغي عندما تأتيه أصوات الاحتجاجات عالية من خارج الحدود. ودّعنا الشباب بعد أن قبلتُ دعوة منهم للتنزّه معاً داخل جنّة الخفافيش في القريب العاجل.

ذهبنا إلى منزله الذي يبعد مسافة قريبة من الجسر حيث يعيش وحيداً مع جدّته العجوز، التي تعتني به بمبالغة لا تليق برجل في عمره، لكنّه إذ لاحظ علامات التعجّب والاستفهام على وجهي قال مازحاً: لا تشعر بالغيرة فإنها أبي وأمي وإخوتي وكل شيء، وأنا أبوها وأمّها وكلّ شيء لها أيضاً.

شعرتُ بالحرج الشديد عندما علمتُ أنّ جدّته هي مَنْ قامت بتربيته، بعد موت والديه في أوقات متقاربة وهو ما يزال صغيراً في السنّ وبدايات الدراسة، كان والده معلماً شديد التعصّب للحزب الشيوعي الذي ينتمي إليه، عاش طوال حياته منعزلاً لأنه لم يكن يؤمن بالصداقات

مستعيضاً عنها بشراهةٍ في التدخين دفع ثمنها الإصابة بسرطان الرئة، أمّا والدته فقد لقيت حتفها بعد ذلك بسنوات قليلة لم تخلع خلالها ثياب الترمّل عنها قط، في حادث سير مفجع عندما كانت تحاول عبور أحد الشوارع حاملةً سلّة الخضار التي اختلطت بدمائها.

رفضت الجدّة مطاردة المحاكم من أجل ديتها، وبدلاً من ذلك حملته إلى منزلها، وقد أقسمت ألّا يجوع أو يعطش أو يحتاج إلى شيء ما دامت على قيد الحياة، وواظبت على المتاجرة بما تصنعه من حلويات وأشغال يدويّة، حتّى تخرّجه من معهد المعلمين العالي الذي التحق به لمجرّد الحصول على الشهادة لا عن رغبة منه، لذلك لم يمسك طبشوراً يوماً كما لم يحبّ أبداً الوقوف في طابور أمام الصرّاف من أجل المرتب الشهري، فقد استهوته عوالم الأسواق وأجواؤها منذ أن كان ولداً صغيراً يرافقها في العطلات، كما كان يذهب إليها بعد الدوام المدرسي عندما يكون جائعاً. لقد فتح مكتبة تبيع الكتب والهدايا عثرتُ عليها بالصدفة، وعليه هو في ذات الوقت.

حدث ذلك عندما ذهبتُ إلى الكشك الذي أشتري منه الصحف عادةً بعد غيبة، فوجدته قد أُغلق بالشمع الأحمر وكُتب عليه "إزالة"، وكان عليّ تبعاً لذلك أن أبحث في كلّ السوق عن محلّ أجدُ فيه مجلّة "يونتي" من أجل موضوعٍ كنتُ قد قرأته قبل فترة، لم أجد العدد

لكنّ صاحب المكتبة وعدني بجلبها من أرشيفه الخاص إن كان بإمكاني المرور به في اليوم التالي صباحاً.

وجدته في الموعد ينتظرني وقد وضع إلى جانبه عدداً آخر قديماً لم أنتبه له، وضعتهما معاً بين الدفتر الذي كنت قد اشتريته للتو رغم أنّ عنوانه قد شدّني بعض الشيء، كانت به موسيقى جميلة وجدتها عكس معناها تماماً: "نبش ذاكرة الموتى".

لبّيت دعوته فشربنا الشاي معاً، وجدته مختلف المذاق عمّا اعتدته، فسّر لي الاختلاف بأنّه يرجع إلى غليه لوقتٍ طويل على نار هادئة، إنّه شاي "أبو تِكّا" أي شاي الرجال، قال ذلك مقهقهاً أمّا أنا فأحببتُ طريقته في الكلام، وجدتُ فيه شيئاً يغري بالزيارة مرّةً أخرى، ذلك الشيء هو استشهاده طوال الكلام بفلاسفة لم أسمع ببعضهم وكتبٍ كثيرة قرأها هو، وعدته أن أمرّ به في وقت لاحق لعلّنا نتحدث.

اقترح أن نستمع معاً إلى الموسيقى فلديه أسطوانات قد لا توجد في مكان آخر، وهو وحده مَنْ يمتلك الآن جهاز الريل في المدينة كلها، بعد أن دُمّر ذلك الموجود في مكتبة مدرسة الراهبات، اللواتي بدورهنّ حاولن دون جدوى إغراءه ببيعه لهنّ من أجل الفائدة العامّة كما قُلن.

من نافذة الغرفة المعتمة كانت الكاتدرائية تظهر متلألئة في الخارج. شعرتُ بنشوة غريبة وتمنّيتُ لو ألتقط لها صورة، فقد رفع المشهد الرائع عنّي قليلاً

الخيبة التي شعرتُ بها، وذلك عندما وجدت أنّ جميع الأسطوانات التي وصفها بالنادرة قد سبق لي الاستماع إليها، ولسوء الحظ انقطعت الكهرباء قبل أن نكمل الاستماع ليطردنا الحرّ إلى الخارج، حيث وجدنا جدّته قد قطعت بطيخة في انتظارنا قائلة إنّها تطرد الحرّ وتحسّن المزاج.

سألتني الجدّة عن أهلي مَنْ يكونون وأبدت بعض الاهتمام بهم، وقد أشارت إلى أن أسماءهم توحي إليها بأنّهم ذوو شأن، ثم قالت إنّ الأمر مجرّد حدس منها لا أكثر. أحببتُ إطراءها لأهلي فقبلت المحفظة الجلدية التي أهدتها لي، وانتبهتُ في وقتٍ لاحق إلى أنها مصنوعةٌ من جلد التمساح فقرّرتُ على الفور عدم استخدامها أبداً مخافة أن يحسبني اللصوص غنيّاً ويتتبعوا أثري فيعرفوا أين أسكن.

الأحد ٤ أغسطس ٢٠١٥م

بعد ثلاثة أيامٍ من هطل المطر بدون انقطاع وشعور الجميع نتيجة لذلك بالعزلة عن العالم، التي زادها سوءاً تردّي شبكات الاتصال من جهة وإغلاق الكثيرين هواتفهم النقالة من جهةٍ أخرى، اعتقاداً منهم أن ذلك سوف يحميهم من الصواعق التي ظلّت تضرب بعنف وشدة، وقد وقعت إحدى ضرباتها على شجرة "الدليب" الضخمة على الجانب الآخر من الشارع الذي يمرّ أمام المنزل مؤدّياً إلى النهر، وقد انشقّت إلى نصفين فسقط عشّ النسر أعلاها أرضاً لتتبعثر شظايا البيض في كلّ اتّجاه، وسقط أحد النسرين صريعاً وقد مسّ جناحيه لهبٌ خفيف، لكنّ مخالبه خلعها بعض المشعوذين ليلاً، وتفجّر الناس في كلّ الشوارع مثل جيشٍ من النحل، فيما انشغل بعضهم بصيد النمل الأبيض الذي طار جماعاتٍ مثل عاصفةٍ من الغبار حتى ضاق برائحته الذين يعانون من الربو. أمّا أنا فقصدتُ الكنيسة بمزاج رائق ترجم نفسه في إلقاء التحيّة على كل مَنْ صادفته لأن اليوم كان فرصة لأزور الكاتدرائية، علّني أحظى بمصادفة بعض الأهل ممّنْ تسلم أمي عليهم، بإلاضافة إلى لقاء الكاهن نفسه الذي سمعتُ أنه قد أصدر كتاباً عن المدينة هذه السنة.

تناولتُ بيضاً مسلوقاً ولحماً بالخُضروات مع الكاهن الذي دعاني إلى مشاركته المائدة، فور أن أبديتُ رغبتي

في الحصول على نسخة من الكتاب الذي ألّفه أخيراً، سرّه جداً أنّني لستُ صحافياً أو واحداً من طلاب الدراسات العليا الذين تعب من ملاحقتهم إيّاه بالأسئلة ومحاولة تحويله إلى مؤرّخ، الأمر الذي لا يريده لنفسه أبداً إذ يريد فقط أن يتشجّع الجميع ليرووا حكاياتهم مع مدينتهم وقصّتها، وأشار إلى أنه ينتظر منّي ملاحظاتي من أجل طبعة مستقبليّة أجود بعد القراءة التي لن تستغرق وقتاً طويلاً، قال ذلك وهو يلمّح إلى صغر حجم الكتاب الذي لا تتجاوز صفحاته المئتين، وقد أهداه لي طالباً الاهتمام به لأنّه مهترئ بسبب طباعته بطريقة شعبيّة في المطبعة الوحيدة بالمدينة، التي تطبع كتب الصلوات وبطاقات المناسبات ذات الربح المضمون لكنّ أصحابها وافقوا على المخاطرة بنشر الكتاب لأنّه يحمل اسم المدينة، الذي هو اسم المطبعة نفسها إذا ما حُذفت الكلمة الأولى منها: "تاريخ مدينة واو".

عند توديعه إيّاي لاحظتُ أنّ عينيه شديدتا الزُرقة كأنهما عينا قطّ، فعرفتُ السبب الذي جعلني أرتاحُ إليه من النظرة الأولى: لقد كان يبدو كنسخةٍ مطابقة من الأب "ياني" الهولندي الذي تولّى مسؤولية تحضيرنا لنيل المناولة عندما كنّا صغاراً، كُنّا متحمّسين في حضور دورسه شوقاً لتذوّق طعم القربان أكثر منه بدافع من الإيمان، وكان يستوقفني فيه طوال الوقت لون عينيه الذي طالما وجدته غريباً ومثيراً في آن واحد،

بحيث فكرتُ أكثر من مرّة في سؤاله عن ذلك، لكن دون أن أتجرّأ أبداً حتى سافر هو وكبرتُ أنا لأعلم كم كنتُ سأظهر أبلهَ لو فعلت ذلك.

كان عليّ أن أقضي بقيّة النهار في انتظار تعبان بالنادي الإغريقي، لأن البار المفضّل لديه لا يفتح إلّا بداية الأسبوع. خلال انتظاري إيّاه خطر في رأسي أنّ الأيّام ليست متساوية في الطول، فالاثنين طويل وثقيل عكس الأحد الذي أجده لذيذاً ولكنّه قصيرٌ جداً، مثل "حلوى القطن" الذي يذوب بمجرّد وضعه تحت اللسان ويظلّ المزيد منه يُطلب دون جدوى، كما هي الحال معنا عندما كنّا صغاراً لا نملك سوى الإلحاح أمام أمّهاتنا، اللائي يزجرننا بصرامة قائلات إن ذلك سوف يسوّس لنا أسناننا.

عندما وصل أخيراً كان رائق المزاج، وقد بدا في سنٍّ أصغر ربّما بسبب تصفيفته الجديدة، التي قال عنها إنها تقليدٌ لقصّة شعر فنّانه المفضّل الذي يحتفل هذه الأيّام بيوبيله الذهبي، وقد اختار أيّ معجب به حول العالم تقديم التهنئة على طريقته الخاصّة، لكنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد وراء انشراحه حيث أشار إلى أنّ كشف التنقّلات الجديدة قد خرج نهاية الأسبوع، ولحسن حظه سوف يظلّ في المطار لعامين آخرين. إنّه موقعٌ يسيلُ له اللعاب إلى درجة استعانة البعض بالسحر من أجل الحصول عليه، قال ذلك ثمّ أضاف مازحاً:

– أعرفُ أنّك لا تؤمن بذلك.

– كلا.

– كأنك تتغيَر.

– لستُ أدري.

عندما وصلتُ إلى المنزل كان مزاج كوليتا أيضاً رائقاً، إذ سمعت أنَ بخورها قد وصل. وجدتُ الأمر يستحقّ اهتمامي أنا أيضاً، فتمنّيتُ معها أن تزور الفلاتية المنزل اليوم قبل غدٍ، لاحقاً قلتُ لنفسي ربّما كان تعبان على حق، لأنني الآن أنتظرُ مَنْ يقرأ طالعي.

الخميس ٨ أغسطس ٢٠١٥م

عاد خالي إلى الوطن فجأة إذ لم يخبر أحداً حتّى أمّي نفسها بأنّه في الطريق إلينا، أمّا أنا فلم أتوقع أبداً قدومه في وقت قريب كهذا، بل لم أصدق أذنيّ عندما اتّصل بي في وقتٍ مبكر من يوم الثلاثاء ليعلمني أنّه قد وصل لتوّه إلى مطار جوبا، وذلك بالنظر إلى أنّه قد ظلّ في جميع مكالماته التي تأتي في أوقات متأخرة من الليل وأحياناً في الساعات الأولى من الصباح نسبةً لفارق التوقيت بيننا، يتحدّث بطبيعيّة وكالمعتاد عن أشياء كثيرة مثل مفاوضات السلام التي لا تنتهي أبداً بين الأطراف المتنازعة، حيث يظلّ طوال وقت المحادثة يبدي قلقه دون توقف من أن تمتدّ الحرب إلى المدينة قائلاً "حاول طلع نفسك من النار دا يا ود أختي"، وهي قضايا لا أشاركه متعة التحدّث عنها جميعاً كنوعٍ من التشاؤم من أن الحديث عن الحرب يجعلها أشدّ قسوة، لكن مع ذلك أجد نفسي مجبراً على الإصغاء حتّى النهاية، أولاً لأنه الخال الوحيد الباقي لي بعد أن خطف الموت جميع إخوانه الآخرين في أوقات متفرّقة، ما يعني أنّني لا أستطيع تحمّل مغامرة الاختلاف معه لأنّ ذلك يعني أنني سوف أكون مثل "المقطوع من شجرة"، أي مَنْ لا خال له، وثانياً لأن اتّصاله بي لا يهمّني وحدي إذ يكون في جزءٍ منه مخصّصاً لأمّي، ذلك أنّه يختم جميع اتّصالاته التي تأتي

على فترات متباعدة بالطلب منّي الذهاب في اليوم التالي مباشرة إلى "ويسترن يونيون" لتسلّم القليل من الدولارات التي أرسلها، وكأنّها تعرف جداول اتّصالاته كانت أمّي في اليوم التالي مباشرة تسأل صباحاً "هل اتّصل خالك؟"... فأعرف على الفور أنّها تقصد القول "هل أرسل خالك شيئاً"، فأخبرها أنّني سوف أمرّ بالصرافة في طريقي إلى المستشفى، ثمّ أسأل إنْ كانت تريد منّي أن أقضي لها خدمةً أُخرى، لأنّني أعلم أنّها تكون كريمة بمجرّد وصول تلك النقود إليها بحيث تودّ إرسال بعضها إلى صديقاتها الكثيرات، اللواتي ترمّلت بعضهن منذ زمن وبقين دون عائل، لكنّ الحرب زادت من سوء أوضاعهنّ.

كان عليّ أن أظلّ في حيرةٍ من أمري إزاء غموض السبب وراء قدومه المفاجئ هذا، وظللتُ بالتالي طوال الوقت منذ اتّصاله بي أقلّب كلّ الاحتمالات الممكنة في رأسي حتّى تكشّف لي السبب عندما تحدّث معي اليوم، لأصدّق بدوري كم أنّه غريب الأطوار كما تقول أمّي عندما تتحدّث عنه.

لقد أخبرني أنّ الحظ قد تبسّم له أخيراً فحصل على تذكرة طيران ضمن سحبٍ لليانصيب، وكان عليه حسب شروط المسابقة أن يختار الجهة التي يودّ السفر إليها لمدّة شهر، وقال إنه قد سارع إلى اختيار العودة إلى الوطن دون غيره من الخيارات المفضّلة الأخرى، التي قد يفكّر فيها كلّ مَنْ قد تُتاح له مثل تلك الفرصة

الثمينة، وذلك كيما يرى بنفسه الأوضاع التي وصلت إليها البلاد وما إن كان مناسباً بعد لمسه الأشياء بعينه، أن يدفع من جيبه الخاصّ من أجل القدوم مرّةً أُخرى في نهاية السنة للاحتفال بالكريسماس أم لا.

ورغم أنه قد ظلّ غائباً طوال سنوات الحرب الأولى تقريباً ولم يشهد تجدّد الحرب مرّةً أُخرى، وجدته يتحدّث عنها كأنه شاهدٌ على جميع فصولها، ولم ينسَ أن يتحسّر مثل أيّ جنوبي على موت قرنق مبكراً، قائلاً "لو كان هنا لكانت الأمور على ما يُرام"، بعد ذلك فأجاني بأن أخبرني أنه يريد أن يستغلّ هذه الفرصة أيضاً ليرى إنْ كان بإمكانه فعل شيءٍ مفيد في هذه الفوضى، مثل أن يعثر على فرصة عملٍ مع إحدى المنظمات الكثيرة التي حطت على البلاد من كلّ صوب كما الذباب على الجيفة، منذ تفجّر المعارك قبل عام. لمّح لي إلى أنه قد يستخدم جنسيته الأجنبية من أجل الاستفادة أكثر، لأنّه بذلك سوف يجني المزيد من المال بصفته مواطناً أجنبياً، ولن يكون هنا عرضةً للضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة على كلّ جنيهٍ أو سنت تحصده هنالك.

"ثمّة جانب جميل لكلّ شيء حتّى الحرب نفسها، علينا فقط تعلّم كيف نراها"، قال ذلك كأنّه شَعر بي أوشك على كيل التهم له بالانتهازية لتفكيره على ذلك النحو، أمّا أنا فوجدت الأمر مسلياً بطريقة ما، أن يوجد شخصٌ يفكّر على ذلك النحو الذي تحدّث به، إنّه

الجانب الجميل في الأمر، أن يستطيع الإنسان أن يبحث وسط الظلام عن النور، ويتعلم كيف يجعل من البصيص شعلةً تضيء له.

وجدتُ أنّ ذلك هو ما أحتاج إليه بالفعل هنا، فقد وجدتُ نفسي منذ قدومي هنا في دوّامة من الضياع لا تنتهي أبداً، دون أن أجد طريقاً يقودني إلى أبي. كلّ ما أجده ذات الحكايات المكرّرة عن موسيقاه، وهي الحكايات التي مللتُ سماعها منذ صغري وأجدها دائماً لا تشبعُ نهمي، وأفضّل بدلاً منها لو أعثر له على قبرٍ فقط لأضع إكليل الزهور عليه وينتهي كلّ شيء، وهو الأمر الذي يبدو حتّى الآن بعيد المنال جداً بالنظر إلى أنني قد توقّفتُ عن البحث في الأيام الأخيرة، ولا سيّما بعد أن فشلتُ مرّتين في لقاء باسيلي حيث ضرب لي موعدين لم ينجح في الوفاء بأيٍّ منهما، كما لم أجده عندما حاولتُ مباغتته بزيارة النادي الإغريقي حيث يقرأ الصحف ويدخّن النرجيلة على طاولةٍ منزوية، ووحده في أغلب الأحيان، وإنْ كان يشاركه الرفقة من حينٍ إلى آخر بعض من أصدقائه الذين يزورون المدينة من وقتٍ لآخر.

لم أحاول زيارته مرّةً أخرى فقد وجدتُ نفسي في خمولٍ وتكاسل لا أعرف كنههما، حيث ظللتُ في المنزل لا أخرج منه منذ أن علمتُ أنّ المرأة الفلاتية قد وصلت إلى المدينة، ولسببٍ لا أدريه علّقتُ كلّ الأمور التي كنتُ أخطّطُ القيام بها، بل كسلتُ حتى عن القيام ببعض

الأشياء الصغيرة التي لا يكلف إنجازها جهداً يُذكر، مثل نفض الغبار عن صندوق الأوراق الذي أعطتني إيّاه كوليتا، وترتيب محتواه بالشكل الذي يسهل العودة إليه عندما أريد ذلك، وشعرتُ بالخجل أكثر بعد انتباهي إلى حقيقة أنني قد ركنت الصندوق تحت السرير دون أن أفتحه حتّى، وندمٌ شديد يلفّني لأنّني شعرتُ بأنني خذلت كوليتا بسبب عدم اهتمامي لأمر الصندوق الذي خصّتني به دون غيري، رغم وجود مَنْ هم أقرب منّي إلى قلب زوجها المرحوم، مثل باسيلي الذي ربّما يشاركه جميع الذكريات، مرّها وحلوها.

أخرجتُ الصندوق من تحت السرير حيث ظلّ هناك مهملاً أكثر من أسبوع. ألقيتُ نظرةً سريعة فوجدت محتوياته تتنوّع بين رسائل مكتوبة بخط اليد ومخططات لرسوم غير منجزة بالكامل، وقصاصات صحف ومجلّات قديمة جداً خمّنتُ أن بعضها توقفت عن الصدور لغرابة أسمائها على سمعي.

أعجبني من القصاصات – التي من بينها صور فنّانين وممثلين عالميّين – بورتريه للفنان "بوب مارلي" يبدو فيه يافعاً ومثل كائن سماوي بشعره المنسدل على كتفيه مثل شلّال أسود. وضعتُ القصاصة المهترئة بفعل تراكم السنوات بين دفتي دفتر صغير أحمر الغلاف، وجدته الآخر أسفل الأوراق جميعاً لكن دون أن يأتي عليه العثّ والرطوبة بسوء كبير، كان يبدو مثل مفكّرةٍ لتدوين الملاحظات والعناوين، لكنّ جزءاً منه كان

يحتوي ما بدا لي أشبه باليوميّات، وهو ما جعلني أشعرُ بفضول شديد نحوه رغم أنّني لم أكن متأكداً من ذلك تماماً، لأن الخط لم يكن واضحاً كما أن بعض الأسطر بدأت تمّحي، لأن الحبر السائل الذي كُتب به يبدو سريع العطب ولا يدوم.

على كلّ حال، أعدتُ ركام الأوراق التي جعلت كلّ الغرفة تفوح برائحة الفطر، بعد أن وضعتُ بورتريه "مارلي" الذي طالما أحببتُه برفقة الدفتر على الطاولة حتّى يستعيدا الحيوية عندما يمرّ بهما الهواء النقي من النافذة التي أشرعتها على مصراعيها، ثم أخذتُ أفكّر في ما سأقوله لإستر عندما ألتقيها غداً في يوم التمريض الذي دعتني إليه، لم أجهّز كلمات مجاملة مناسبة للحدث بعد لكن ما سوف ألبسه جاهزٌ منذ الآن، قميص "البُولو" الأزرق الذي أحببته منذ النظرة الأولى رغم أن خالي اعتذر بسببه كثيراً جداً، لأنه رآه هديّةً تافهة ولا تليق بمقامي، وطول غيابه عني.

الجمعة ٩ أغسطس ٢٠١٥م

أخيراً اكتسبتُ مظهراً حسناً وأنيقاً جداً, أو هذا ما بدا لي من الطريقة التي أخذ جميع الحضور في الحفل يعاملونني بها، حيث أخذ الرجال يرحبون بي وابتسامات كبيرة على شفاههم كما لو كنتُ ضيفَ شرف البرنامج، كما لاحظتُ أن بعض السيدات أخذن كلّما مررتُ بالقرب منهنّ يغمزن بأطراف عيونهن، ليلفت بعضهنّ انتباه بعض نحوي.

وشعرتُ بذلك، أناقتي، أكثر عندما رحبت بي إستر، وهي تدعوني إلى الجلوس بالقرب منها، لصق مقعدها، قائلة:

– قميصك بالغ الروعة لكنّ عطرك أحلى.

قلتُ لها وأنا أضحك:

– لذلك طالما أحببتُ "البولو" طوال حياتي.

بعد ذلك أمسكت بصدري حيث يجثم شعار الماركة، الرجل الراكب صهوة فرسٍ جامح منحنياً والمضرب بين يديه، بفخر وثقة شديدة بالنفس، ثمّ أضفتُ وأنا أضحك بصوت خافت:

– ولطالما قصصتُ في صغري هذا الراكب الجامح من أجل لصقه في ملابس أخرى، لأنّه لا يستحق أن يذهب مع النفايات إلى الإهمال والتلف، إن ذلك بالفعل هو الأمر الذي جعل أغلب قمصاني عندما كنتُ صغيراً، تنتهي إلى أن تصير مثل "جبّة درويش المهدي"، لشدّة

تنافر الشعار في بعض الأحيان مع غيره من القطع التي ألصقه بها. لقد كان ذلك نوعاً من جنون الطفولة الذي لا أدري كيف انتهى وتلاشى كأنه لم يكن.

ضحكتُ بصوت عالٍ عندما ردّت قائلة:

– لكل منّا جنونه الخاصّ، أمّا أنا فكان جنوني هو الخوف من ألّا أجد مَنْ يتزوّجني عندما أكبر، والآن ويا للغرابة والعجب، صرتُ أنا نفسي مَنْ تجتهد في إبعادهم عن طريقي، فأسألُ نفسي إلى أين وصلتِ يا إسترا!

استقبالها إيّاي بكلّ ما لديها من أريحيّة ورزانة، وعدم طرح السؤال عن غيابي الطويل – كما كنتُ أتوقع وأخاف – دون السعي من جانبي لتفقّد أحوالها وأخبارها، حتى لو كان ذلك عبر الهاتف فقط، جعل قلبي يبرد، فأشعر بأنني في مكانٍ شديد الألفة رغم أنّ البرنامج لم يعجبني إطلاقاً، وذلك لأن المنظمين قد ملأوه بخطب مكرّرة شديدة الملل، شعرت بها وهي تُلقى بعضها وراء بعض، وبدا من شدّة تشابهها أن الذين يخطبون شخص واحد يمثّل أدواراً كثيرة دون إجادة، رغم ذلك لم أحرّك ساكناً وظللتُ مثل المسمار في مقعدي طوال أكثر من ساعتين، حتّى عادت لتعتذر عن انشغالها بأمر ما خلف كواليس البرنامج، وتطلب منّي أن أرافقها إن لم أكن أمانع في ذلك.

تلقّفتُ الدعوة كأنني غريقٌ رُمي له طوق نجاة، وهكذا خرجنا إلى الحديقة الخلفية للمبنى، وهناك انضمّ إلينا شابّ أسرع إلينا باشّاً بمجرّد أن رآنا وكأنّه يعرفني،

رحّب بي بانشراح ومودّة، وقبل أن يختفي من أمامنا قالت إستر: هذا هو أخي الأصغر، وأضافت إنه في إجازة هنا بعد أيّامٍ أو أسابيع سوف يعود إلى حيث يدرس، وقالت كأنها تحذرني:

– لديه غرابة الأطوار لكنها قد تفيدك!

بعد ذلك عرفتُ أنّ جزءاً من غرابة أطواره يتمثّل في جمعه الأغراض القديمة مثل طوابع البريد وقصاصات الصحف والحليّ بالإضافة إلى المجلّدات العتيقة كأنّه قيّمٌ على متحف، وقالت إن المطاف قد انتهى به نتيجة غرابته تلك إلى دراسة الفنون لا الهندسة كما كانت الأسرة تتمنّى وتريد، وذلك كيما تكتمل صورة هيبتها إذ إن في المنزل كلّ المهن الراقية من طبٍ وقانون وكهنوت عدا الهندسة، لكنه يجادل دائماً ودون جدوى محاولاً الإقناع، بأنّ الفن هو الشجرة التي تتفرّع منها جميع المهن الأخرى.

لم يعجبني فيه إصراره فقط على المضيّ في ما اختاره، بل أيضاً محاولاته غير المنتهية لإقناع الآخرين، فسألته ماذا يفعل هذه الأيّام وسط الأجواء الملبّدة، أجابني أنه يفعل شيئاً صغيراً من أجل الذكرى، يشيد ما يشبه نصباً في منزل "نمرة ٣" تكريماً للضحايا الذين لقوا حتفهم هنالك قبل سنوات قليلة، دعاني إلى زيارة المكان عندما أجد وقتاً لذلك وسوف يكون سعيداً بالملاحظات التي قد أبديها، لأنني أبدو له من القميص الذي أرتديه حسن الذوق جداً، هكذا قال وهو يبتسم.

كان ذلك إطراءً آخر على أناقتي تقبّلته بابتسامة كبيرة من قلبي وأنا أقول:

– دا من ذوقك.

بعد ذلك وعدنا وهو يهرول عائداً إلى ثلته من الأولاد والبنات الذين أخذوا يصرخون به غير مرة:

– "جو" تعال علينا اتاخرت يا "جو".

وجدنا نفسينا وحدنا كما في المستشفى أوّل مرّة، فبادرتُ إلى فتح فمي بالاعتذار لكنها لم تدعني أكمل، أغلقت فمي براحة يدها اليمنى وهي تقول لا تفسد اللحظة بالندم، قُل شيئاً آخر، حتى لو كان ذلك عن الطقس مثلاً.

هنا ضحكتُ مرّةً أُخرى وقلتُ إذ شعرتُ بانشراح كبير، إنك تفعلين بي ما لم يستطع أحدٌ فعله منذ زمن، وهو أن أرمي بالتشاؤم جانباً، فلمع طيفُ ابتسامة على وجهها ثمّ استدركت كأنّها نسيت شيئاً لتقول:

– جميعكم هكذا إذاً، تغزّلٌ وإطراءٌ في البداية.

تركتُ ملاحظتها تمضي أدراج الريح رغم أن فيها رائحة تحريض لا يخفى، ربّما الخوف الذي تبعثُه فيّ "الشامة" على خدّها هو ما ألجم لساني، فوجدتُ نفسي تميل جهة أخرى دون أن أستطيع المقاومة، جهة أن أبوح لها بالمشاعر التي تبعثُها في نفسي "شامتها"، لأخبرها أنّها في البداية كانت شبحاً بُعث من أعماق حياتي ليلاحقني ويعذبني بالذكرى كلّما وجد إلى ذلك طريقاً، وأيّ طريقٍ أسهل عليه من ابتسامتها نفسها؟

لكنّني الآن أشعرُ بها بطريقة أُخرى، على الأقل واقعاً لا شبحاً لشخصٍ آخر لطالما حاولتُ نسيانه دون جدوى.

لكنها لم تتركني أقول ذلك إذ قطعت تدفق خيالي عندما ضربت على كتفي من الخلف ضربةً خفيفة، وهي تسأل إلى أين سافرت ووصل بك الخيال؟ فانتبهتُ إلى أنني شردتُ بعيداً عنها بخيالي فسارعتُ إلى الاعتذار وأنا أتمتم:

– اعذريني فقد كانت الأيام السابقة عصيبة لدرجة أن الأرق أصبح رفيقي الدائم ليلاً وهذا الشرود نهاراً.

– لا عليك.

ردّت وهي تتواطأ معي لتقول:

– مَنْ يستطيع النوم في هذه الحرب التي تزحف في كلّ ساعة برائحة اللحم البشري في كلّ مكان.

عندما أخذت تتحدث عن الحرب وكيف تعبت من شرورها، انتبهتُ إلى أنّها قد بدت في سنٍّ أكبر من التي رأيتها فيها عندما التقينا للمرّة الأولى والأخيرة في المستشفى، ولم أكن بحاجة إلى مجهود شاقّ لأعرف أنّ الأمر يعود إلى التعب الذي تعانيه من العمل المتواصل ليل نهار، فاقترحتُ عليها أخذ إجازة من أجل تغيير المزاج قليلاً، وأشرتُ لها إلى أن العمل دائماً موجود ينتظر والمرضى لن ينتهوا أبداً.

– عليكِ أن تدلّلي نفسك من وقتٍ لآخر.

قلتُ لها ذلك بمزاح فلم تبخل بابتسامتها مثلما هو الأمر معها دائماً، لكنّ وجوماً خفيفاً سرعان ما عاد

ليخيّم على وجهها ومعه انطبقت شفتاها اللتان خلتهما ستنطقان بشيء.

أعطاني صمتها ووجومها فكرة عنها لم أنتبه لها من قبل، إنّها أيضاً منشغلة ببعض القضايا الكبيرة، ما يعني أنني ظلمتها في البداية، لكن ما عسى ذلك أن يغيّر في الشعور الذي بدأ يتّجه نحوها متزامناً – ويا للعجب – مع رسائل نجوى التي بدأت تنهمر في الأيّام الأخيرة، كأنّما أحدهم قال لها إنّني على وشك أن أفعل شيئاً خطيراً نحوها، وكأنها قد سمعت الدعوة التي وجّهتها لي إستر وخفق معها قلبي إذ حمّلتها أكثر ممّا تحمل، ورغم أنّ كلّ ما في الدعوة هو السعي لمساعدتي أنا:

– لماذا لا تتدبّر لك عملاً هنا، وتمكث في انتظار والدك بدل البحث عنه في هذه العجالة التي لا تليق به حتّى، فكّر في الأمر فطبيب العيون الوحيد لدينا أصبح يعمل بالذاكرة فقط إذ أصبح لا يرى.

فكِّر في الأمر!

كرّرت.

فكّرتُ في الأمر وفيها أكثر لكنّني لم أقل شيئاً، لأنّ شقيقها "جو" عاد مرّةً أخرى ليخبرها أنّ فقرة توزيع الشهادات قد أتت، والتفت نحوي كأنّه يشير إلى أنّ الموعد قد انتهى، وهو يقول:

– سوف تجلبك إستر إلى "نمرة٣" دون شك.

– وأنا أتحرّق لذلك.

ثمّ افترقنا.

السبت ١٠ أغسطس ٢٠١٥م

عليّ أن أقول إنه كان يوماً للورق دون منازع، حيث قضيتُ الوقت كله في القراءة، لأول مرّة بعد أيّام كثيرة مضت وتلاشت في التجوال دون طائل، أو على الأقل هذا ما أقوله لنفسي بعد أن وجدتُ نهاية الأسبوع قد داهمتني سريعاً، وأنا لم أنهِ قراءة كتاب القسّ، رغم عدد صفحاته القليل، وكان يُفترض بي إعادته إليه يوم غدٍ مع بعض الملاحظات التي وعدته بها.

سوف يكون أمراً مؤسفاً جداً أن أفشل في الوفاء بوعدي، فأعيد الكتاب كأنّني لم أطّلع عليه، لا لصغر حجمه فقط بل لمكوثه كثيراً لديّ. أسبوع بالتمام والكمال دون أن أكمله رغم ذلك حتّى.

ندمتُ لأنّ ذلك قد يعطي انطباعاً خطيراً عنّي، وهو أنّني كسولٌ جدّاً، ما قد يدفعه مستقبلاً إلى التردّد في إعارتي كتاباً سوف أطلبه منه أو حتّى مجرّد وثيقة قد أودّ الاطّلاع عليها مستقبلاً، أليس هو، أو قُل مكتبته كنزٌ ثمين من الوثائق.

لذلك وبعد الخوف جدّياً من تلك الاحتمالات جميعها، كنتُ أمام خيارٍ يتيم هو إتمام الكتاب اليوم وبأيّ وسيلة. وهكذا وجدتُ نفسي أجلسُ على الطاولة وأفعلُ ما كنتُ أقوم به أيّام المدرسة الثانويّة عندما أكون في ورطةٍ من واجباتي المدرسيّة، كأن يكون عليّ مثلاً دخول اختبارٍ لم أستعدّ له تماماً من قبل، ومع ذلك أريدُ

النجاح فيه بأيّ ثمن، إنّه نوعٌ من غرابة الأطوار فعلاً أن أقدم عليه بعد تلك السنوات الطويلة، لكنني وجدتُ نفسي أقوم به كما كان الأمر في الماضي تماماً: خلعتُ جميع ملابسي إلّا رداءً صغيراً بالكاد كان يغطّي أعضائي، ووضعتُ كلتا قدميّ في سطل مملوء نصفهُ بماءٍ دافئ، وقد وعدتُ نفسي ألّا أخرجهما إلّا بعد أن أكون قاب قوسين أو أدنى من النهاية، أو على أقلّ تقدير عندما أشعرُ بأنني وصلتُ إلى مرحلة لا أستطيع التوقف معها دون بلوغ النهاية.

بدأتُ القراءة من حيث توقفتُ آخر مرة فتحتُ فيها الكتاب، وهو الفصل المعنون بـ"أحياء المدينة وتاريخها"، وكالعادة في أيّ بدايةٍ لدينا أطلّ الرجل الأبيض برأسه من الجملة الأولى:

> مثل عادتهم في جميع الأمكنة التي اكتشفوها من البلاد، اختار الإنجليز لأنفسهم أفضل الأمكنة، فأبعدوا السكّان عن ضفّة النهر، وذلك حتّى يستمتعوا بالطبيعة وجمالها لعلّها تنسيهم وحشة الغربة التي ورّطتهم فيها أحلام الإمبراطوريّة، لذلك بنوا مكاتبهم ومساكنهم على الضفاف مباشرة.

بعد ذلك بنوا سجناً جعلوا فيه مشنقة ليثبّتوا حكمهم، وجنّدوا من السكّان رجالاً جعلوا مساكنهم ملاصقةً للمكان، فأُطلق على تلك البيوت الكئيبة المنظر حيّ السجون، وهو أقدم الأحياء بعد سكن

الأفندية الذي احتوى بيوت الذين عملوا على خدمتهم طوعاً من كتبة وتجّار ورجال دين، وغيرهم.

مضى الوقت دون أن أنتبه، ووجدتُ نفسي غارقاً بين الصفحات حتّى انتصف النهار تقريباً، وكنتُ بين الفينة والأخرى أغلق بعض الصفحات لأضحك من المشاهد والعبارات التي تستحقّ منّي ذلك، مثل الحديث الذي ذكره المؤلف عن القدّاس الأوّل في المدينة، حيث أشار إلى أن السكان الذين قبلوا المسيح في ذلك اليوم لكن مع بعض الشكوك، قد وافقوا على مضض وبعد إلحاح على ترك حرابهم خارج الكنيسة التي بُنيت على عجل من موادّ محلية زهيدة الثمن، فظهرت أعوادها – الحراب – المغرورة عند الباب عن بُعد مثل متاهة من العيدان نمت لتوّها في المكان.

أخرجتُ قدميّ من السطل وسارعتُ إلى ارتداء بنطالي، وأنا أشكر الله على أن أحداً لم يطرق الباب وإلّا صرتُ في وضع حرج، وأقلّ ما يمكن أن يُقال في شأني هو اتّهامي بالجنون، فمَنْ يقرأ عارياً إنْ لم يكن به مسٌّ من الجنون.

أكملت الصفحات المئة التي خلتها سوف تأخذ وقتاً طويلاً، دون أن أشعر برغبة في الخروج، مثلما هي عادتي في الأحوال المشابهة، حيث أجدني متعباً لا أريد فعل شيء سوى الخروج، كأنّني بذرة تتعجّل مغادرة ظلمات التربة لتغتسل بالنور والهواء النقيّ.

لم يحدث شيء من ذلك، بل كنتُ في مزاجٍ نهِم للقراءة أكثر، وهكذا وجدتُ نفسي أقلّب عشوائياً كومة الصحف والمجلّات المنزوية في الرفّ الأسفل من الدولاب، حتّى وقع نظري على المقال الذي استوقفني قبل فترة في المجلّة التي أهداها لي لومومبا، ولم أقدم حتى على مجرّد تصفّحها.

كان عليّ أن أدوّن اسم المقال بعناية في دفتري دون أن أعرف سبباً لذلك، سوى أنّ جرس كلماته قد أعجبني، تخيّلته يصلح عنواناً لفيلم سينمائي أو لسيمفونية ما لبيتهوفن مثلاً.

لكنّي بعد ذلك تأسفتُ جداً، أولاً لأن العدد قديمٌ جداً، يعود إلى ستينيات القرن الماضي، ما جعلني، والأعمار بيد الله وحده، أشعر بأن كاتب المقال ربما يكون غير موجودٍ الآن، بنيتُ تخميني على صورته التي تقبع أعلى المقال، حيث تظهره شخصاً يزحف الكبر إليه بخطى ثابتة، وذلك من خلال التجاعيد الجليّة على وجهه رغم عدم وضوح الصورة تماماً.

وثانياً لأنني بعدما فرغتُ من القراءة شعرتُ بالضياع والندم من أنّني ظللتُ طوال الوقت أبحث بعيداً عن أبي دون جدوى، فيما الخيط إليه مهمل تحت سريري وأنا غافلٌ عنه. كان المقال قد كتب بعد أيامٍ فقط من حادثة إطلاق النار، فيه الكثير من البكاء والرثاء على الذين سقطوا.

لا أدري كيف أصف شعوري وقد وضعتُ أخيراً، بالصدفة المحضة، قدماً على الطريق الصحيح الذي قد يقودني إلى مكانٍ ما ربّما، بدل التيه في شوارع المدينة دون جدوى، كنتُ منتشياً ويداي تمسكان بالمقال كأنّهما فكّا ذئب أمسك بطريدة.

وجدتني أدوّن منه بعض السطور في دفتري الذي ظلّ حتى الآن خاوياً من أيّ شيءٍ عن أبي، لأنّني ببساطة لم أعثر حتّى الآن على شيء ذي جدوى، باستثناء بعض الأشياء التي أعرفها مثل قصّة زجاجة الفيتا التي نجا بفضلها باسيلي وهي التي لطالما اعتبرتها محض تخريف، ولذلك لم أسعَ خلفه بالبحث والتنقيب كثيراً، وإنْ كنتُ قد عزمتُ على سؤاله عنها حين نلتقي، وذلك عندما يعود من سفرته التي قيل إنّها مأمورية يومين أو ثلاثة لكنه طال جداً، وذلك من أجل إسكات فضولي ليس إلّا.

أوّل ما دوّنته بعد اسم الكاتب – الذي وضعتُ تحته خطّاً أحمر دلالةً على أهميّته القصوى، لأنني سوف أسأل لومومبا عنه فور التقائي إيّاه حتّى لا أنسى مع تدفّق الحديث، لأنه قد يساعدني في العثور على خيوط أخرى ضمن كومة أوراقه الضخمة التي مرّت عليها السنوات دون أن تثير اهتمام أحد، ما قد يجعله دون شك سعيداً بأن وجد أخيراً شخصاً مستعداً لسماع ثرثراته ساعاتٍ طويلة – هو المقطع التالي:

وأولئك لم يكونوا محض فنانين يعزفون ويغنّون، إنّهم مثقفون ومتعلّمون، وتلك وحدها تهمة كافية لربطها بجماعة الثور المجنّح السرّية، التي قيل إنّها تُهرّب المتطوّعين للمحاربة إلى الكونغو للانضمام إلى الفدراليين الذين يحاربون منذ سنوات، لكن الأمر يبدو افتراضاً يصعب التثبت منه لأن جميع أولئك الرجال قد تفرّقوا الآن أو قُتلوا حسب الأخبار الرائجة، ورغم عدم العثور على جثثهم جميعاً يقول سكان المدينة إن الجور الذي كان في فيضان غير عادي ذلك العام ربّما تكفّل بجرف بعض المساكن بعيداً، كما هي عادة الأنهار في التواطؤ مع الكوارث دائماً...

وجدتُ عينيّ تثبتان على هذا المقطع كأنّهما تحرسانه من السرقة، وأنا أنتظر الغد وهو لناظره قريب كما يُقال، فكيف بي أنا المتحرّق، همستُ لنفسي وكلّي عزمٌ على أن يكون أول واجباتي عندما تشرق الشمس، هو عبور جسر قرنق إلى الجهة الأخرى من المدينة، لأسأل لومومبا عن الكاتب وماذا لديه أيضاً من كتابات أخرى له.

برغم الإرهاق الذي كان بي نتيجة القراءة دونما توقف منذ الصباح، لم أستطع النوم بل تغلّب الأرق على كلّ ما عداه من مشاعر، ولم أستطع التحايل عليه بلعبة

"عدّ الخراف" التي طالما هزمته بها، أمام ذلك لم تجد عيناي مفرّاً من أن تعودا إلى ألبوم الصور القديمة التي أرسلها لي رونالدو في وقتٍ سابق، وعند ذلك شعرتُ بأنني جاحدٌ للنعمة لأنني لم أتّصل به منذ زمن طويل، ولأشكره على الأقلّ للعمل الرائع الذي قام به لأجلي وأبارك له فوز فريقه بالدوري، سوف يعجبه ذلك أكثر من أيّ جائزة في الدنيا، إذ لطالما انفجر بالفرح عند وصف فريقه بـ"الملك".

توقفتُ كثيراً أمام صورة تظهر أبي وحيداً وهو ما يزال في بدايات الشباب، شارباهُ زغبٌ متفرّق، على عينيه نظارةٌ سوداء، وقد ارتدى ربطة عنقٍ فراشيّة، وانتعل حذاءً ضخماً كأنّه بوت عسكري.

فكرتُ في أن أسأل أمّي ذات يوم، عمّا إن كان أدّى دور مهرّج في مرحلة ما من حياته، لكنّني سرعان ما طردتُ الفكرة من رأسي، واستغربتُ كيف خطرت لي تلك الوقاحة التي قد تجرحها فيرتفع ضغط دمها.

الأحد ١١ أغسطس ٢٠١٥م

مدحني القسّ كثيراً وقال إنّ ملاحظاتي على كتابه قيّمة وسوف تفيده جداً، وتعجّب من انتباهي إلى تفصيلٍ صغير غفل عن ذكره وتناوله، وقال وهو يشكرني على لفت انتباهه إلى ذلك الأمر المهم جداً، وخاصّةً لرجل دينٍ مثله: بالفعل لا توجد مدينة في الدنيا دون متشرّدين، أنت على حقّ يا صديقي، بالفعل لا يوجد مكان مثل ذلك إلّا الجنّة.

لقد شعر بالأسف الشديد كأنه اقترف خطيئة مميتة، رغم أنني لم أفعل شيئاً سوى الإشارة إلى أنه قد تحدّث عن كل شيء يخصّ تاريخ المدينة إلّا "المتشرّدين"، وأبديث له ملاحظة بأنّه سوف يكون جميلاً أن يعرف المرء كيف كانت أحوال تلك الفئة في الماضي، لأن ذلك سوف يعطي فكرة لا بأس بها عن المجتمع يومذاك وقيمه.

لا أدري لماذا فكرتُ في ذلك الأمر، لا أخفي أنّني شعرتُ بالندم جرّاء ذلك، لكنّ الجميل أنه خفّف من شعوري ذاك بأن دعاني إلى زيارته في وقتٍ آخر من أجل التحدث أكثر، عن مواضيع أُخرى ولعب الورق ربّما، وأضاف كأنه يرفع راية التحدّي في وجهي من أجل القبول بعرضه: "لم أهزم منذ ستّ سنوات ربما".

لم أعطه وعداً قاطعاً لكنّ المؤكّد أنّه لا يعرف عنّي الكثير، وإلّا لعلم أن الأمر أشبه برمي الكرة إلى أعمى من

إجل التقاطها، لأنني ببساطة لا أجيد تلك اللعبة أو بالأحرى أنا بالضبط مَنْ يُقال في مثله: "رصّاص".

بعدما افترقنا دون وعدٍ حاسم باللقاء قريباً، عبرتُ إلى الجهة الاخرى من المدينة بغية الالتقاء بـ"لوموموبا"، كما وعدتُ نفسي سلفاً، لكن سوء الحظ وقف في طريقي فوجدته قد خرج في مشوار قريب كما قالت جدّته، لكنّي لم ألتقِه أبداً لأنّه تأخر جداً حيث انتظرته ساعات طويلة، حتى بدأت الشمس تغرب لتأتي جدّته مرّة أخرى وتقول لي: أوه لقد ارتكبت خطأً يا بُنيّ، لأنّني لم أخبرك أنه قد لا يأتي اليوم حسبما قال، ربما ينام لدى بعض أصدقائه.

على أيّ حالٍ خرجتُ وشعورٌ بالغضب يملأ حلقي تجاه العجوز، لأنّها قتلت يومي بانتظار ما لن يأتي نتيجة ذاكرتها الخربة، لكن لم يكن بيدي شيء لأفعله سوى أن أوصيها بضرورة أن تخبره بأن يأتيني فور وصوله، وقد مسّتني خشيةٌ من أن تنسى وصيّتي فكرّرت الوصيّة أكثر من ثلاث مرات، حتى اقتنعتُ أخيراً بأنها ستفعل ما أريد كما هو تماماً.

وهكذا مضى اليوم كله بين الكنيسة والجهة الأخرى من المدينة، وكنتُ سأحسبه ضاع سدىً لو لم أجد كوليتا سعيدة لأن رسولاً ما جاءها يقول إن "الفلاتية" تسلّم عليها وتبلغها السلام وستجلب لها البخور الذي طالما انتظرته بشغفٍ غداً بإذن الله وبنفسها لتعتذر عن طول غيابها.

وجدتهُ أمراً غريباً نوعاً ما أن يُدخل ذلك الخبر الصغير مثل ذلك الفرح العارم على وجهها، لكن الخبر لم يكن سعيداً لها وحدها، إذ لم تخبُ في رأسي قطّ الرغبة في سماع "رمية ودعها" عن حظي، إن لم تكن يومها تريد مجرّد فتح باب للمزاح معي طبعاً، وهذا ما أخشاه دون أن أدري لماذا.

على أيّ حالٍ استمرّ فرحها العارم ذاك حتّى خلدت إلى فراشها، وتجلّى ذلك في تشغيلها الراديو بأعلى صوت، وتركها إيّاه حتّى انطفئ وحده، بعدما ظل يصدح بمختلف لغات الدنيا وغنائها طوال الليل.

الاثنين ١٢ أغسطس ٢٠١٥م

حمدتُ الله أن سعادة كوليتا لم تعكّرها أيّ مفاجأة أبداً، وكانت "الفلاتية" عند كلمتها حيث أتت صباحاً تحمل ما وعدت به، وبدا لي من سعادتها أنّهما ليستا مجرّد تاجرة وزبونة، بل صديقتان عزيزتان، وكان ذلك أوضح من الحرارة الشديدة التي تبادلتا فيها التحيّة، ودخولهما في دفق من حديث حميم يليق بصديقتين غابت إحداهما عن الأخرى كثيراً.

وهنا لم أكن بحاجة للمزيد من التفكير حتى أعلم أنّ فرحها أمس لا يعود فقط إلى ما كانت تنتظره من بخور، وذلك لأنها بدأت كلامها أول ما بدأت بعتابٍ طويل يتعلق بغياب ضيفتها ومعها ما سمّته "ودعها"[1] الذي لا يخيب رميه أبداً.

1 الودع بالعامية السودانية تعني الأصداف التي تُرمى لقراءة الحظ.

لقد كان في الأمر نوعٌ من قدوم نبيّة تعتمد عليها في حساب خطواتها قبل أن تُقدم على شيء، وقد تأكد لي ذلك عندما سارعت الضيفة المنتظرة منذ وقتٍ طويل، إلى إخراج عُدّتها من أجل ذات الطقوس التي رأيتها تقوم بها في لقائي الأول والأخير بها، مع فرق أنّها في هذه المرة كانت تقوم بالأمر في الهواء الطلق خارج الغرفة، لأنّ نسوة كثيرات جئن من أجل معرفة حظوظهن والاستماع إلى طالعهنّ.

واستمرّ ضحكهن وضجيج "الجبنة" تحت شجرة الجمّيزة الكبيرة التي تتوسّط فناء المنزل، حتّى ساعة متأخرة من اليوم، ما حتّم عليّ البقاء محبوساً داخل الغرفة طويلاً، دون أن أجرؤ على الخروج مخافة أن يشعرن بالذعر من رجل غريب يدهم خلوتهنّ المليئة بالثرثرة، فباب غرفتي يفتح مباشرةً على الفناء، وهو الأمر الذي لم يكن سيّئاً بالمطلق حيث جعلني أسمعها بوضوح تقرأ حظوظهن جميعاً تقريباً، بدءاً من تلك التي قالت لها إنّ زوجها الذي هجرها سوف يعود إلى فراشها ذليلاً في القريب العاجل، وصولاً إلى التي زغردت لأنّ ابنتها العانس سوف تعثر على عريس مع نهاية العام التي ستكون بداية مواسم من السعادة قد تدوم طويلاً في الأسرة.

شعرتُ نتيجة كلّ ذلك الفيض من الفرح الذي أدخلته في النفوس، بأنني كنتُ على حق في انتظارها، لكنّ الندم سيطر عليّ مؤقتاً لأنّها ستغادر دون أن أستطيع سؤالها عن حظّي، حيث سمعتها تقول ضمن أشياء كثيرة للشبقات إلى فضح الغيب بسرعة من النسوة الملتفّات حولها: "كنّ هادئات فسوف أقرأ للجميع حظهنّ اليوم، لأنه اليوم الأخير قبل رحلة الخريف شمالاً، التي تبدأ غداً يا بنات".

استمرّ الوضع على حاله من ذلك الصخب المرح، حتى بدأ جمعهنّ ينفضّ شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً بحلول الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً، موعد قدوم

الأزواج من أعمالهم ومكاتبهم، وعند ذلك فقط وجدتُ الفرصة سانحة للفكاك قليلاً من حبس الغرفة، وفي الخارج وجدتُ كوليتا كما لو كانت تتربّص خروجي حيث خاطبتني فور أن وقعت عينها عليّ، "وأنت أيضاً تنتظرك أخبار طيّبة"، ثمّ نظرت إلى ضيفتها التي لم تكن قد لملمت أشياءها بالكامل بعد، فأجابت بسرعة وهي تعيد فرش القطعة المزركشة اللامعة على الطاولة الصغيرة أمامها قبل أن ترمي بقطع "ودعها"، التي تفرّقت في جميع الاتّجاهات لكنّ كلّ مجموعة منها تراصّت بانتظام مثل طابور عسكري، مع ملاحظة أنّ واحدةً منها قبعت بعيداً متطرّفةً في زواية الطاولة، فذكّرتني بالمسيح في فيلم "البشارة" عندما خرجت الناصرة كلّها خلفه بنيّة إسقاطه من التلّة التي عليها المدينة، قبل أن ينسل بأعجوبة من الجموع الغاضبة التي كانت تسعى خلفه، ويبقى على حافة الجرف وحده وقتاً، تماماً كتلك القطعة.

قالت في قراءة القطع المتفرّقة فيما كانت تنظر مباشرةً إلى عينيّ كأنّها تنقّب عن شيءٍ ضاع: "كما ترى، تلك القطعة الوحيدة هي أنت، والصفوف المتراصّة عقبات سوف تجتازها جميعاً قبل أن تصل إلى حيث تريد".

شعرتُ بالخيبة ممّا قالته ليس لأنّه سيّئ كما قد يتوقع أحدهم، بل لأنني بعد الانتظار الطويل لها كنتُ أتوقّع سماع ما هو أكثر وضوحاً، ما أستطيع استخدامه

كتعويذة تفاؤل عند الشدّة مثلاً، لكنني في النهاية لم أستطع إلّا أن أشارك "كوليتا" فرحها، وأبدي لها مشاعر الامتنان من الحظ الطيّب الذي يقف في طريقي.

لكن بعد ذلك سألتُ تعبان الذي جاءني بعد غيبة، في وقتٍ لاحقٍ من اليوم حيث اعتذر لانشغاله بالعمل الذي سرق كلّ وقته، عن مدى صدق "الوداعات" فيما يقلن بخصوص الطالع وفض أسرار المستقبل، فما كان منه إلّا أن أطلق ضحكةً مجلجلةً قبل أن يردّ: "الأمر أشبه برمي قطعة نقودٍ يا صديقي".

الثلاثاء ١٣ أغسطس ٢٠١٥م

اليوم جاء "لومومبا"، لا يخفى على وجهه التعب، بدا كمَنْ ظلّ مستيقظاً أيّاماً كثيرةٍ دون نوم، أخبرني أنّه قدم إليّ فور أن أبلغَته جدّته أنّني جئت أسأل عنه، وأضاف أنّه لم يعد إلى المنزل إلّا بعد يومين، بدل أن يعود صباح اليوم التالي إذا ما تأخّر كما وعد، وذلك لأنّه وجد مفاجأةً غير سارّة تنتظره، بحيث كان عليه أن يذهب إلى المستشفى والبقاء بالقرب من صديقٍ أُصيب بطلقٍ ناريّ، وكانت حالته حرجة لكنّه الآن تجاوز منطقة الخطر، ما أعطاه فرصةً كي يعود للمرّة الأولى منذ صباح الأحد.

عرضتُ عليه أخذ قسطٍ قليلٍ من النوم، لعلّه بذلك يستعيد بعضاً من نشاطه، وتسويقاً لطلبي، أخبرته أنّني لستُ على عجالةٍ من أمري، لكنّه اعتذر وبرّر ذلك بأنّه لا يستطيع النوم إلّا على فراشه، ومهما تكن الظروف المحيطة، فالرقاد على سريرٍ آخر لا يسبّب له إلّا مزيداً من التعب. ولأنّ الأمر كان كذلك، لم نمكث كثيراً وخرجنا معاً حيث وجدني أصلاً أتهيّأ للخروج متأخّراً كما هي عادتي في الأيّام الأخيرة.

وهناك في منزله، كان عليّ أن أساله – لا فقط عمّا إن كان يملك أعداداً أخرى من المجلة - بل أيضاً إن كان يعرف شيئاً عن كاتب المقال، لكنّي لم أجد لديه إجاباتٍ مرضية بالنسبة لي عن السؤالين. فالمجلّة لم تعد تصدر

منذ زمنٍ طويل ولم تقع عيناه إلّا على العددين اللذين بحوزتي سلفاً، ومن أجل إضفاء المزيد من المصداقيّة على كلامه ربّما أراني نسخاً أخرى من نفس العددين، لكنّه وعدني بأن يسأل صديقاً له ذا ثقافة واطلاع على الاسم، قال إنّه لا يعدني لكنّه يتوقّع أن تكون لديه بعض الإجابات المفيدة.

وتركتُه لينام على وعدٍ بأن يبلغني إذا ما وجد شيئاً ذا جدوى. وبما أنّ اللقاء انتهى سريعاً جداً، فقد بقي لي متّسعٌ من الوقت الفارغ لأتّجه إلى "جو"، وهناك في "نمرة ٣"، وجدتُه وحيداً وسط فوضى المنزل الخرب، كان يرتدي "أوفر هول" ويطلي جوانب العمود الرخاميّ الذي ينتصب مسافةً قليلةً من المدخل، ويحمل أكثر من خمسين اسماً كُتبت بالإنجليزيّة.

وضع علبة الطلاء جانباً أوّل ما رآني أدخلُ إليه، وسارع إلى القول فيما كان يبتسم: "لقد جئت وحدك إذاً". أجبتُه دون أن يخفى عليّ طبعاً ما كان يلمّح إليه من علاقة محتمَلة مع شقيقته: "نعم فقد أصبحتُ قديماً بعض الشيء، على الأقل بحيث يمكنني العثور على المعالم المشهورة دون أن أحتاج إلى دليل".

عليّ أن أعترف بأنّه لم يفارق الصواب تماماً في ما ذهب إليه، فقد كنتُ قبل أيّامٍ فقط على وشك أن أضع قدماً في ذلك المشروع، العلاقة مع إستر، لكنّ برودا أصابني فجأة بحيث لم أعد أفكّر جديّاً في ذلك الموضوع مرّةً أخرى كما كان الأمر في البداية، دون أن

أدري سبباً منطقيّاً وراء ذلك، رغم أنّي قد أغلقت المراسلات مع نجوى دون رجعة – أو هكذا أعتقد – حيث لم أردّ على إيميلها الأخير الذي كانت تطلب فيه رقم هاتفي الجديد، الأمر الذي يفترض به نظريّاً أن يقود إلى رمي الكرة في ملعب شقيقته، لكنّه الأمر الذي لم يحدث أبداً.

بقينا فترةً طويلةً نتحدّث كأنّنا على معرفةٍ منذ سنوات بعيدة، لا شخصان التقيا عرَضاً ذات مناسبة، أخبرني أنّ هذه قد تكون سنته الأخيرة في المدينة لأنّه قرّر ألّا يعود مرّةً أخرى، بسبب الحروب التي لا تنتهي حتّى تبدأ بالإضافة إلى شعوره بأنّه كفئانٍ يحتاج إلى مكانٍ أرحب من حديقة الأقارب هذه.

يريد – كما قال لي – أن يترك خلفه شيئاً يذكّر به، وهل هناك ما هو أفضل من هذا النصب؟ هل هناك ما هو أفضل من الفنّ لمقاومة النسيان؟! تساءل، ثم مضى ليوضّح لي أنّه استغلّ فرصة تراجع البلديّة عن فكرة إنشاء متحف، حتى يقوم بمشروعه الصغير هذا، ولم يجد في الواقع أيّ اعتراض من أحد عندما شرع في العمل، لأنّ الكلام الكثير الذي كان يدور حول تكريم مَنْ سمّاهم المسؤولون "شهداء العرس" ليس سوى دعاية كانوا يقصدون بها جذب رئيس الجهموريّة، ولذلك سرعان ما طردوا الفكرة عنهم بمجرّد أن تأكّدوا من أنّه لن يأتي، خاصّة بعد اختلاط حابل الحرب حول المدينة بنابل حرب الثأر التي قد تندلع داخلها في أيّ لحظة،

بعدما رفضت عشيرة "كجور المطر" التحدّث حتّى مع السلطات في ما يمكن فعله، الأمر الذي جعل الناس يعيشون بخوفٍ في ما يشبه هدوءاً يسبق عاصفة يخشَونها ويتمنّون أن تمنع وقوعَها معجزة.

وفيما بدأتُ أقرأ أسماء الضحايا المنقوشة على الرخام الأسود، قال لي كأنّه يريد أن يستبق سؤالاً قد أطرحه عن اسم أبي، "لقد رتّبنا الأسماء وفق تاريخ الوفاة، لذلك تجد أوّلاً الذين ماتوا هنا بالرصاص مباشرةً في الأعلى، ثمّ أولئك الذين وُجدَت جثثهم في مشرحة المستشفى في اليوم التالي، وأخيراً في الأسفل مَنْ لم يُعثر عليهم ويُرجّح أنّ تيّار "الجور" قد جرفهم بعيداً". هناك، في أسفل القائمة، بين الأسماء الأخيرة، كان يقبع أبي. ربّما لذلك سارع إلى كلامه هذا، وربّما كنوعٍ من المواساة أيضاً، لكنّ كلّ ذلك لم يكن في الواقع يشكّل لديّ فارقاً، بل كان انتباهي منصرفاً إلى التجوال في تفاصيل المنزل الذي ما يزال رقم قدمه يشعّ جمالاً في كلّ أركانه تقريباً، فالطلاء داخل الغرف الأربع التي يقابل بعضها بعضاً ما يزال لامعاً ويبدو جديداً، رغم أنّها لم تشهد أيّ أعمال صيانةٍ كما لم يسكنها أحدٌ منذ حدوث الفاجعة، ويظهر ذلك من الجدران المتهدّمة والطحالب التي نمت حتى طاولت الحافات العليا للبئر، لأنّه ليس من أحدٍ يستطيع المخاطرة بالسكن فيه، بل حتى اللصوص لم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منه، ويبدو أنّ الجميع على اقتناع بأنّ أرواح الضحايا سوف

تصطادهم. هذا ما قاله ثمّ أضاف بصوتٍ هامسٍ كأنّه يفشي إليّ بسرّ: "هل تصدّق حتّى أنا نفسي كنتُ أؤمن بذلك، قبل أن أصبح مثل صديقي الشجاع جدّاً تايقر؟".

قال ذلك وهو يشير إلى كلبٍ سلوقيّ بنّيّ اللون يرقد تحت شجرة الدليب الضخمة التي تتوسّط الفناء، ودون أن يناديه، أتى يهزّ ذيله ويلعب متقافزاً حولنا، فتبيّن لي أنّه الحيوان الطيّب كما وصفه، وهو الكائن الحيّ الوحيد الذي يسكن المكان منذ عقود، وما يؤكّد له شجاعته الجبّارة، وإن كان البعض يهمسون بأنّه ربّما يكون جبّاناً، أنّه يملك منزلاً لا يستطيع أحدهم سكنه أبداً بسبب الخوف الذي يسكنهم. بعد ذلك، طلب منه العودة مرّةً أخرى إلى حيث كان، وهو يخاطبه بودّ وعتاب كأنّه طفلٌ عزيز: "لا شيء يُؤكَل مع ضيفي العزيز هذا، الآن انصرف وأظهر بعض الاحترام ولا تزعجنا".

لاحظ الدهشة في عينيّ فقال ضاحكاً: "خِلتُ أنّي أخبرتك أنّ شقيق إستر مجنونٌ نوعاً ما، بالتالي لا تهتمّ كثيراً لكلّ ما يتفوّه به أو يفعله."

بعد ذلك أضاف وقد عاد إلى صوته نوعٌ من الجديّة: "هل تصدّق أنّ البشر هم الكائنات التي تصعب مصادقتها سريعاً، وحتّى بعد مصادقتها يظلّ التربّص بينهم موجوداً على طول الخطّ؟ لذلك، لطالما أحببتُ منذ صغري مصادقة الحيوانات عليهم، فعلى الأقلّ لن

تندم يوماً من شيءٍ قلته لها عندما تسوء علاقتكم، أو تنقطع في أسوأ الفروض والاحتمالات."

قبل أن أغادره تذكّرتُ أنّه – حسبما قالت إستر عندما عرّفتني إليه – يملك أكواماً لا تُحصي من المطبوعات القديمة في المنزل، لذلك قرّرتُ أن أحوّل مجرى الكلام بعيداً قليلاً عن المنزل ما دام هو موجوداً، لأسأله عمّا إن كان يستطيع مساعدتي في العثور على أعدادٍ من المجلّة قد تكون لديه.

أجابني بعدما أخذ نفساً عميقاً، بأنّه يملك بعض النسخ التي بإمكاني أخذها معي إن أردت، لا من أجل الاطلاع عليها فقط، ما دام الأمر كما يبدو مهمّاً بالنسبة إليّ، لكنّه تأسّف لأنّ ذلك قد يحتاج إلى بعض الانتظار، حيث يحتفظ بها لدى صديقٍ له، والمسكين مع الأسف يرقد الآن في المستشفى بعدما أُصيب بطلقٍ ناريٍّ من جنديٍّ مخمورٍ عند نقطة تفتيش في المدينة.

أمّا أنا، فحزنتُ بعدما سألته عمّن يكون ذلك الصديق... وقد تذكّرتُ أنّ "لومومبا" أيضاً لديه صديقٌ مصاب، ليؤكّد لي أنّه الشخص نفسه، ولأعلم أيضاً أنّه صاحب المكتبة التي كنتُ أشتري منها الصحف قبل أن تضرب السلطات الشمع الأحمر على بابه أثناء مرضي.

الأربعاء ١٤ أغسطس ٢٠١٥م

أستطيع أن أقول عن هذا اليوم إنّه كان يوم راحةٍ وهدوء، حيث وجدتُ نفسي بعد أيّامٍ من الركض أجلس في المنزل دون حراك، أقوم بكلّ شيءٍ ببطء سلحفاة لا شأن لها بالوقت والزمن، رغم أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إليّ، إذ توشك إجازتي أن تنقضي وأنا ما أزال في نقطة الصفر تقريباً في بحثي عن أبي، ولا جديد معي سوى ما دوّنته من أحاديث متفرّقة وأشتات ذكرياتٍ عنه، بالإضافة إلى بعض الأخبار المفيدة التي جاءتني أخيراً وما أزال ألهث خلفها.

وأشكّ في أنّني قد أستطيعُ ملاحقتها حتّى النهاية، لأنّ المدير يذكّرني على الدوام بدنوّ نهاية إجازتي، كأنّه قد اشتمّ رائحةً تشي بأنّني أفكّر في البقاء والاستقرار هنا ربّما، وذلك لأنّه ما يزال كما أعتقد مؤمناً بأنّ الجنوب أرض الأحلام: حيث يُشاع أنّ حكومتها تصرف مرتّبات موظّفيها بالدولار، لا بجنيهها الذي لم يُطبع عشيّة الاستقلال سوى لزوم استكمال متطلّبات وجود الدولة لا أكثر.

إنّه بالفعل وهمٌ يستحقّ من المرء أن يشفق على مَنْ يؤمنون به، لأنّهم لو علموا كيف أنّ المرتّبات هنا قد أصبحت تأتي كلّ أربعة أشهر كأنّها فصول السنة، ويفرح لها الناس أكثر من بهجتهم بالعيد نفسه، لتأسّفوا لأنّ الانفصال كما يسمّونه هناك أو الاستقلال كما هو الأمر

هنا، كان البداية لنهاية أسطورة أرض الأحلام التي طال الحديث عنها من أهلها وغيرهم: جنوب السودان، التي سوف تدرّ للجميع لبناً وعسلاً.

قرّرتُ أن أواجه ضغوط المدير وأمدّ في إقامتي إذا ما أجبرتني الظروف على ذلك، وهو ما أصبحتُ أرجّح حدوثه، وذلك بالنظر إلى أنّني أصبحتُ لا أعرف متى يأتي "باسيلي" من مأموريّته التي طالت أكثر من اللازم، بالإضافة إلى المفاجأة التي وقعت على رأسي مثل الصاعقة حين قرّر خالي – دون سببٍ واضح – أن يأتي من العاصمة إلى هنا، قائلاً: "عليّ أن أضرب عصفورين بحجر"، الأمر الذي يعني – دون أن يطلب منّي صراحةً – أن أنتظر قدومه الذي لم يحدّد له موعداً معيّناً، فقط قال: "في الأيّام المقبلة أكون معك".

وفيما كنتُ أرفع بورتريه "بوب مارلي" الذي سقط أرضاً من داخل الدفتر الأحمر الذي ظلّ على طاولة كما وضعتُه أيّاماً دون أن أفتحه، انتبهتُ إلى أنّ شعري قد طال ولم أضع عليه شفرة حلاقة منذ وصولي إلى هنا، لكنّ الوقت كان قد تأخّر للعثور على صالون يعمل إذا ما خرجت، إذ كانت التاسعة ليلاً.

الجمعة ١٦ أغسطس ٢٠١٥ م

فجأةً، تجمّعت في يديّ خيوطٌ كثيرةٌ بحيث وجدتُ معها أنّ كلّ اللهاث والجري الذي كنتُ فيه طوال الفترة الماضية لا طائل منهما. أوّلاً، جاءني "جو" يخبرني أنّ حالة صديقه المصاب قد ساءت جدّاً، والترتيبات تسير على قدمٍ وساقٍ من أجل نقله إلى خارج البلاد في أسرع وقتٍ ممكن، وإلّا فإنّ الأمر سوف ينتهي ربّما ببتر يده المصابة. أمّا أنا، فقد ساءني الخبر جدّاً لأنّ صديقه ذاك كان أوّل مَنْ أتعامل معه هنا للمرّة الأولى، وظلَلنا نتحدّث كأصدقاء كلّما مررتُ به في مكتبته قبل أن تغلقها البلدية. لكنّ جو لم يأتِ بذلك الخبر المؤسف فقط، إذ جاء في الأساس ليعلمني بأنّه قد حصل على بعضٍ من أعداد المجلّة كما وعدني.

لكن قبل أن أتسلّمها، حدث ما جعلني أنسى أمرها. ذلك أنّه في اليوم الذي كنتُ أزمع فيه الذهاب إليه من أجلها شلّتني عن الحركة تماماً أمورٌ بالغة الخطورة وجدتها في طيّات الدفتر الأحمر الذي ظلّ مُهمَلاً على الطاولة أيّاماً منذ أخرجته برفقة بوتريه "بوب مارلي".

كان يحتوي على أسماء وتواريخ تعاملتُ معها أوّلاً بتجاهلٍ وقلّة اهتمام عندما وقعتُ عليها، كانت جميع الأسماء مسبوقة بلقب الأستاذ، لذلك كان أوّل ما قفز إلى رأسي هو أنّ الدفتر لا بدّ من أن يكون من مقتنيات عمله كمعلّم، فتلك كانت مهنة صاحب الدفتر وقد استمرّ

فيها طوال حياته، خاتماً صولاته في ميدانها بأنّه صار وكيلاً ثم ناظراً لأكبر مدارس الإقليم، وبعد رحيله ظلّ اللقب يوميّاً محلّ الاستخدام برفقة اسمه إذ يرفض الجميع سوى استخدام اسمه معلّماً على الحيّ، "جنب بيت الأستاذ جون"، "الشارع بعد بيت الأستاذ جون"، دائماً يستخدمون تلك الكلمات عندما يريدون وصف مكانٍ ما لشخصٍ ضائع أو عابر، ولو لم يسمع به من قبل فتلك فرصته ليفعل.

لكنّ فضولاً منّي لأعرف بعضاً من أسماء مدرّسي تلك الفترة، قادني إلى أن أكتشف ما ظننته في البداية. لم تكن حزمة أوراق إداريّة تخصّ مدرسةً أو معلّماً، كان الأمر مختلفاً وأخطر من ذلك وعليّ تبعاً لذلك أن أتوقّف وأنسى أمر المجلّات التي كنتُ أبحث عنها، وقد أصبحتُ في غنىً عنها لأنّ الأسئلة التي كنتُ أركض خلف أجوبتها، انكشفت لي خيوطها من خلال تلك الأوراق الصفراء المتآكلة الأطراف نتيجة تراكم السنوات عليها. لم يكن الدفتر إلّا محضراً لوقائع مجموعة من الاجتماعات، تعجّ بكلماتٍ سياسيّةٍ وما يشبه التخطيط لأمورٍ خطيرة ضدّ الحكومة، وما زاد إحساسي بخطورة ما وقع بين يديّ صدفةً، أنّني وجدتُ أسماءً لم أكن أتوقّعها بين تلك القائمة. كباسيلي الذي كان اسمه يظهر ويغيب أحياناً، أبي الذي ظلّ اسمه يظهر في جميع تلك المحاضر، فقد كنتُ أظنّهما عازفي جيتارٍ لا أكثر.

شعرتُ بأن الصفحات المهترئة تقول لي "تعرّضتَ للخداع والكذب طويلاً"، لذلك صُدمتُ وتملّكني شعورٌ بالضياع لم أشعر بمثله من قبل، حتّى فراق نجوى لم يستطع أن يدخلني في مثله. لكن مثلما يحدث في ساعات الحيرة، عندما لا يجد العقل شيئاً منطقيّاً ليستعين به سوى الخرافة تذكّرتُ ما قالته لي "الفلاتية" عندما رمت "حبّات ودعها"، وأنا أقول لنفسي إذاً الأمر هكذا: "يضربني الملاريا فأرقد أيّاماً في المستشفى، وتأتي كوليتا لتنتشلني من الفندق، فأجد نفسي بعد أسابيع داخل غرفةٍ منزوية، ويخرج أبي من داخل دفتر مهترئ، وهو يقول لي: "هذا يا بنيّ مختلفٌ عمّا تعرف، لكنّني أنا مرجان العازف."

ربّما تفكيري على ذلك النحو هو ما أعاد إليّ شيئاً من السكينة، وكان أوّل ما قمتُ به هو الاتّصال بخالي بدل التحدّث إلى كوليتا عن زوجها، وكان أن سألته عن تلك الأسماء فأجابني بأنّهم موتى جميعاً باستثناء اثنين أو ثلاثة ربّما، ثم سألني "لِم تسأل عن أولئك العجائز؟" فأجبته بأنّه قد انتابني فقط فضولٌ لأعرف.. ولم أدرِ كيف أكمل الجملة فأغلقتُ الهاتف وأنا أقول له إنّني سوف أكون في انتظاره في المطار عندما يصل يوم الاثنين المقبل كما أكّد لي، بعد ذلك فكّرتُ بأنّه قد يكون من المفيد ربّما أن أتحدّث مع تعبان فهو على الأقلّ الشخص الوحيد الذي أثق به، وذلك إذا اعتبرتُ أنّ ما بين يديّ من أوراق ذات أهميّة، وقد يكون هنالك مَن

يرغب في الحصول عليها أيضاً، كحكومة الولاية التي صادرت أخيراً الكثير من الأوراق والمقتنيات من أجل المتحف الذي تخلّت عن بنائه، ودون رضى أصحابها، بحجّة أنّ التاريخ ملك للدولة لا للأفراد.

لكن كان عليّ أثناء انتظار لقائه، أن أقوم بمحاولات أخرى وحدي من أجل ملء الفراغات المتعمّدة في النصوص من خلال ما رأيته، وهنا وجدتُ نفسي أحتاج إلى "لومومبا" مرّة أخرى، وكان من حسن حظّي أن وجدته رائق المزاج يحتسي الشاي وأمامه طبقٌ مليءٌ بالفول المدمّس، وما إن رآني حتّى نهض لاستقبالي، وهو يقول: "لا بد من أنّه أمرٌ شديد الأهميّة بالنسبة إليك، هذا الذي جاء بك تحت هذه الشمس الحارقة". ثم أخذ يدعوني إلى الجلوس وهو يصبّ لي كوباً من الشاي، وربّما كي يسدّ أمامي باب الاعتراض والتذرّع بأنّ الجوّ ساخنٌ، قال والضحك لا يفارقه: "لقد أثبتّ أنّ مقاومة "الحرّ بالحارّ" تجدي." بعد ذلك، وكأنّه أحسّني بعيداً عمّا يرمي إليه أضاف: "لذلك، فإنّ أهلنا الكبار يفضّلون شراب الشاي عندما يكون الجوّ ساخناً، عكس ما يفعل الناس في الأماكن الأخرى من الأرض حيث يقاومون الحرّ بالثلج، لا أعرف بالضبط ما السبب وراء ذلك."

تركتُ سؤاله معلّقاً رغم أنّ فيه ما يُغري بالثرثرة أكثر، وقبلتُ دعوته دون أن أحاول قول شيءٍ حتّى، بل طلبتُ كوباً آخر ربّما كي أكسب به بعض الوقت ريثما

أرتّب أفكاري جيّداً، إذ لم أكن أنوي إخباره بأمر اكتشافي.

سألته هل سمع عن رمز "الأنيانيا"، الذي هو عبارة عن ثورٍ مجنّح تتوسّطه ثلاثة ألوان، رُسم في فترةٍ من الفترات على أحد جدران المباني المهمّة كالسينما مثلاً. طرحتُ عليه ذلك السؤال وفي رأسي ما وجدته في الدفتر، من إبداء بعض الجماعة خوفها الشديد من مقترحٍ يقضي برسم الشعار على جدران الميدان في يوم الاستقلال. كان أحدهم يقول في المحضر المؤرّخ في ديسمبر (دون الإشارة إلى السنة لكنني تمكّنتُ من معرفة السنة من سياق كلامه): "نعم سقط عبّود، لكن لا تنسَوا أنّ ذلك حدث قبل شهرين، ما يعني أنّ رجاله ما يزالون أقوياء، وبالتالي هذه مخاطرة لا طائل منها."

أوّل ما طرحتُ عليه السؤال، نهض من مقعده ودخل الغرفة، ثمّ خرج حاملاً بيده جهاز تسجيل أغانٍ نوع "باناسونيك" وكرتونة مليئة بأشرطة كاسيت في اليسرى، وأوّل ما أدار الجهاز، تدفّق صوتٌ نسائيٌّ عذب وقبل أن أسأله مَنْ تكون، قال لي: مابيلا بيلا، تنفع أن تكون خلفيّة لمثل هذه الأجواء التي أدخلتنا فيها بسؤالك، ربّما كنتَ تتوقّع أن أشغّل أغنيةً لا تنتهي مثل "ماريو"، معك حقّ ففرانكو لومومبا عبقرية لكن صوتها هو الدفء الذي أحب أن نحتاط به من أيّ برد قد نشعر به.

وكان ما خلصتُ إليه من الجلسة هو أنه قد سمع ذات مناسبة بمحاولة لمثل ذلك الأمر، لكنّها باءت بالفشل وقُبض على اليافع الذي كان يحاول القيام بالأمر على الفور، لكنه قُتل حين حاول الفرار من أسر الجنود الغاضبين ربّما بسبب موت الكثير من زملائهم في الكمائن التي طالما نصبها أصحاب الشعار خارج المدينة. وقال لي إنّه يستبعد أن تكون تلك الفكرة الخطرة لكن المتنوّعة من أفكار أولئك الرجال الذين اختاروا البندقية، بعد ذلك تحدّث كثيراً عن الكتابة على الجدران حول العالم وتاريخها واستخدامها كإحدى أدوات المقاومة السلمية.

بعد ذلك وفي ما يشبه الندم، لمّح إلى أنّه لو كانت تلك الجماعة (الأنيانيا)، قد أنتجت السلم في مقاومتها لكان الوضع الآن أفضل لأنّ ما أرسوه من قانون مطالبة بالحقوق عبر فوهات البندقية أصبح الثقافة المسموعة لدينا، وتمنّى لو سارت الأمور على نحو مختلف ولو أمسك المثقفون ممّن لديهم أفكار مثل الشيوعيّين كجوزيف المشنوق، بزمام المبادرة، لكان الوضع أفضل، بدل إسكات كل مخاوف الناس من المستقبل والوعد فقط بأن الأمور بعد ذلك سوف تسير على ما يرام وها أنت تنظر كيف تسير الآن، حربٌ في كلّ مكان.

وفي النهاية كان عليّ أن أعود منه بإجابة ناقصة عن سؤالي، لأنّ جُلّ الوقت قد مضى في استيائه من الأوضاع التي آلت إليها البلاد، ولم أستغرب لأنّه كما

فضّلتُ أن أقنع نفسي كانت صدمة صديقه المصاب ما تزال توجعه، لكنني مع ذلك لم أخرج صفر اليدين تماماً منه، فبالإضافة إلى الموسيقى التي ظلت تصدح خلفنا حتّى ساعة نهض يودّعني، لمّح لي إلى سماعه أحاديث عن وجود أو محاولة البعض – بدا غير متأكّد – إقامة جمعيّة سرّية في الماضي، لكنّه – كما قال – لم يقع على أيّ أثر أو دليل قد يقوده إلى ذلك، ثم قال لي إنه قد نسي الأمر رغم ولعه بالأشياء الغامضة لأن أرشيف والده الضخم من المراسلات ليس فيه ما يشجّع على الاعتقاد بصحّة تلك الأقوال، أمّا أنا فعلمتُ عند ذلك فقط قيمة ما أحمل. وخرجتُ دون أن أخبره بشيء.

السبت ١٧ أغسطس ٢٠١٥

"أعرف أنّك ابن مدينة وبالتالي لا تعرف الشيء الكثير عن الأرض وأمورها، لكن رافقني على الأقل، حتى لا أتحمّل البقاء وحدي وسط الجمال فأنا أريد من يشاركني إيّاه." قالت كوليتا ذلك صباحاً وهي تدعوني إلى مرافقتها إلى الحقل، ورغم أن التعب والفتور كانا يثقلان كاهلي جرّاء السهر في تقليب الدفتر بعد عودتي متأخراً ليلة أمس، وجدتُ في تلبية دعوتها فرصة كيما أخرج ولو قليلاً من الدوّامة التي وجدتُ نفسي فيها منذ عثوري على تلك الأسماء، بحيث لم يعد أيّ شيءٍ يشغلني طوال الوقت أكثر من العثور على أجوبة عن أسئلتها الحائرة، مثل لماذا تعمّدت أمّي تلقيننا تاريخاً ناقصاً عن أبي متجاهلةً تماماً – ولو عرضاً في يومٍ يتيم لا يتكرّر – ذكر شيءٍ عن نشاطه السياسي الذي عرفتُه صدفةً. وحتّى أكون صادقاً فإنها لم تذكر كلمة السياسة يوماً أمامي إلّا مرّة واحدة، وهي توصيني بشدّة عندما كنتُ أتهيّأ للسنة الأولى في الجامعة، قائلة: "إيّاك والسياسة فإن تبعتها ضاع مستقبلك".

بالطبع كان عليّ أن أقبل النصيحة رغم أنّني لم أكن بحاجة إليها أبداً، وذلك بكلّ بساطة لأنّني كنت أجدُ نفسي دائماً غير صالح للمشي في دوربها أبداً، وذلك أمرٌ يعود إلى انطباعٍ خرجتُ به منذ دراستي لمادّة التاريخ الأوروبي للمرّة الأولى – وكان الدرس كما أذكر حتى

يومنا هذا يدور حول بسمارك – وهو أنّ "الساسة ليسوا سوى أناس لا تقوم لحياتهم قائمة سوى بالتدخّل في شؤون الآخرين مثل الطفيليّات".

بعد ذلك ورغم أن بعض الأصدقاء الشيوعيين الذين وجدتهم في الجامعة قد غيّروا من انطباعي ذاك قليلاً، وبيّنوا لي أنّ الموضوع يتعلق بمحاولة جعل العالم مكاناً أفضل للجميع، ظللتُ بعيداً عنها دائماً ربما لاعتقادي بأنّني لم أُخلق من أجل مثل ذلك الهدف الكبير، وكان يكفيني أن أطارد ملذّات الحياة بكلّ أنواعها حتّى درجة التأخّر في الدراسة سنوات.

أمّا السؤال الثاني الذي كنتُ أتوق لمعرفة إجابته وربّما أكثر من السؤال الأول، فهو لماذا فضّل "باسيلي" الصمت تماماً وظلّ يعيش فقط على أنّه فنّان متقاعد لا غير، حتى في الوقت الذي كانت فيه جميع الإذاعات عشيّة الاستقلال – قبل أربع سنوات فقط – تبثّ حلقات طويلة مع أشخاص يصغرونه كثيراً يتحدّثون عن نضالاتهم مع تقديمهم كأبطال، لكن كالعادة فإن هذا السؤال أيضاً سوف يظل معلقاً حتى يعود من سفرته التي طالت كثيراً، إلى درجة أن فقدتُ الأمل في لقائه مرّةً أخرى خاصةً بعدما أجابتني كوليتا، ذات يوم عندما سألتها عن غيابه الذي طال بأنّه "هكذا دائماً لا يسافر لكن عندما يفعل ذلك فإنه يتأخر ولا يستطيع أحد التنبّؤ متى يعود".

وزاد الطين بلّةً أنّها شاركتني القلق، وهي تخبرني أنّ سفرته هذه المرّة مختلفة، حيث غادر المدينة أثناء الخريف الذي من عادته ألّا يتحرك فيه أبداً، ويفضّل دائماً أن يقضيه بين ربوع جنّته.

"ألم يخبرك أنّ منزله جنّة؟"... تساءلت متعجّبة، أمّا أنا فلم أجب بكلمة، لأنّني لا أذكر إن كان قال لي شيئاً من ذلك القبيل أم لا.

وهناك في الحقل الذي يكمن بعيداً عكس توقعي، تغيّر الهواء كما يقول أهلنا عندما يعبّرون عن شدّة إعجابهم بطقس لطيف أو منظر رائع راقت له أمزجتهم، وكان إحساساً لا يوصف بالنسبة لي أن أكون للمرّة الأولى في حياتي وسط مزرعة حقيقيّة، ورغم أنّنا لم نخرج بعيداً عن المدينة حيث تقلصت مساحات الزراعة إلى شريط ضيّق يمتدّ من النهر شرقاً إلى الطريق المؤدي إلى "طمبرة" غرباً، فإن البقاء نهاراً كاملاً بين زقزقة الطيور بمختلف أنواعها، وبالقرب من القرود التي كانت تظهر في جماعات صغيرة من بين الغابات المتاخمة، وأحياناً تأتي قريباً جداً مسافة تكفي لإصابتها بحجر، أعطاني ذلك فكرة مختصرة عن الجنّات الجميلة التي تقع خلف تلك الغابات التي تشكل حدوداً جنوبية للحقول، وتمنعنا الحرب من التوغّل فيها والاستمتاع بجمالها الذي خمّنته من الأسراب الكثيرة التي تتفرّق قمم أشجارها في شتات السماء كلّ دقيقة.

كانت "كوليتا" سعيدةً ولكن قلقة جدّاً، فيما كنّا نجول بين نبتات الفول السوداني، التي تفتّحت نوّاراتها الصفراء في جميع الاتجاهات. علمتُ منها وهي تدعوني إلى قطف إحداها وكانت ممتلئة بحبّاتٍ طريّة لذيذة المذاق، أنّ أيّ مزارع يحتفل عندما يرى تلك الزهرات الصفراء تحيط به لأن ذلك يعني نضج محصوله، لكن بعد ذلك تكون مشكلته الكبرى أنّ اللصوص والغربان يبدأون بالاحتفال أيضاً، "ما يعني الخوف الدائم من ضياع كلّ تعبك هدراً بين مناقيرها نهاراً وأكياسهم ليلاً" قالت.

بعد ذلك أوضحت أن يد الحرب قذفت بالمجرمين بعيداً، لأنه لا أحد منهم كما يبدو مستعدّ للمخاطرة بحياته مقابل جولاتٍ سرعان ما تنتهي، ومَنْ يدري ربّما يسقط قبل الحصول عليها ضحيّة دوريات الجيش التي قد تحسبه متمرّداً يحاول التسلل، وخاصة إذا ما صادف لسوء حظه جنديّاً مرعوباً من الظلام، لتظلّ الغربان المرض الذي لا دواء ناجعاً لعلاجه، حيث تغيّرت هي الاخرى مثل كلّ شيء – كما قالت – ولم تعد الفزّاعات تخيفها مثلما أصبحت السماء تمطر كأنما "كجور المطر" لم يُقتل ومضى الزمن الذي كانت تنحبس فيه حتى يُؤخذ بثأره من القاتل، إن كنّا لا نزال نبني فزاعات ربما من أجل إقناع أنفسنا بأننا قمنا على الأقل بفعل شيء.

ظللتُ طوال الوقت أستمتع، وذلك ليس لأنني لا أفهم كثيراً في الزراعة – وهو أمرٌ صحيح بدون شك –

بل لأنّني وجدتُ نفسي أخيراً أجد لذّة خاصّة في الإصغاء إلى الآخرين والاكتفاء بطرح أسئلة كلّما أمكن ذلك، وبالتالي لم أفاتحها طوال جلستنا التي طالت تحت "العرديبة" الضخمة التي تتوسّط حقلها فيما فروعها تضرب في السماء مثل رؤوس أجنحة طائر عملاق – تخيّلته العنقاء كما رأيت رسماً له في أحد الكتب – بعدما أنهينا صناعة فزّاعات جديدة عوضاً عن تلك التي أتلفتها الريح وأسقطتها أرضاً، بما وجدته بين أوراق المرحوم زوجها.

ولاحقاً علمتُ أن ذلك كان الخيار الأفضل الذي يمكن أن أقوم به، عندما وجدتها كصديقتها – أمي – لا تحبّ حتّى مجرد الحديث عن السياسة، وذلك من حادث صغير وقع بعد عودتنا المنزل مساءً، فقد طردت وهي غاضبة موفدة اتّحاد المرأة – وهو أحد أذرع الحزب الحاكم – التي طرقت الباب بكلّ تهذيب ممكن، وقد جاءت تدعوها إلى اجتماع بخصوص عيد الشهداء الذي يصادف نهاية الشهر. واستمرّت بعد ذلك في إطلاق السباب، حتى بعد أن ابتلع الظلام المسكينة وهي نادمة على حظّها السيّئ الذي وضعها أمام عجوز لا تخاف الحكومة ولا تعرف حتى ماذا يعني شتم حزبها، وربما تقول عنها مجنونة، قلتُ لنفسي.

الأحد ١٨ أغسطس ٢٠١٥م

اليوم ذهبتُ إلى الكنيسة وجلستُ بكلِّ أدب وخشوع في الصفوف الأولى، وقد حرصتُ على أن أكون حاضراً من بداية القداس، حتّى يتسنّي لي تناول القربان، وهي المرّة الاولى التي أرغب فيها في القيام بذلك، لكنني تراجعتُ في النهاية بعدما كنتُ على وشك الانضمام إلى أحد الصفوف الطويلة المؤدّية إلى المذبح.

لا أعرف سبباً بعينه دفع بي إلى التراجع والامتناع، وإنْ كنتُ أعرف السبب الذي دفعني للقدوم إلى الكنيسة بكلّ تلك الرغبة الجارفة، إنه – ويا للغرابة – انصياعٌ من طرفي لنصيحة أسدتها لي أمّي قبل فترة من الزمن وتجاهلتها تماماً.

وكان ذلك عندما شكوت لها الكوابيس التي أخذت تعذبني ليلاً، فقالت إن تلك فرصة لأعود إلى الصلوات وتناول القربان، وإن ذلك سوف جعلني أرتاح. عدتُ إلى وصفتها لأنني رأيتُ ليلة السبت – للمرة الاولى بعد مدّة طويلة – الحلم الذي كان يعذبني كلّ ليلة تقريباً قبل أن يتوقف فور وصولي إلى هنا، وأنسى أمره تماماً كأنّه لم يكن.

الاثنين ١٩ أغسطس ٢٠١٥م

لم يأتِ خالي العزيز كما وعد، تأجّلت طائرته إلى الأربعاء، وبالنسبة إليّ كان ذلك أفضل لكلينا، لأنّني لم أكن أدري كيف سأتصرّف أو أقسّم نفسي، بينه وبين تعبان لو قدّر الله وحضر حسب الموعد. كنتُ سأجد نفسي في مأزقٍ بالغ لا أعرف كيف أخرج منه، لأنّه بلا شكّ سيكون في حاجة إلى رفقتي طوال الوقت، حتّى يفهم المكان على الأقل وقد غاب عنه كثيراً، ولا أظنّه في أيّ حال من الأحوال سيقبل بدليل غيري أنا.

جاء تعبان مبكراً وأكثر ممّا كنتُ أتوقّع، قبل نهاية الدوام بنحو ثلاث ساعات أي عند منتصف الظهيرة، ودون أن نضيّع وقتاً طويلاً في أحاديث المجاملة التي تدور عادةً حول كلّ شيء حدث أثناء غياب أحدنا عن الآخر، كنتُ متعجّلاً في أن أعرض عليه ما بحوزتي في أسرع ما يمكن، وكأنّني أسابق زمناً أو أخشى أن يحدث شيء ما لا أدري ما هو بالتحديد. وضعتُ ما لديّ أمامه فأخذ يقلّب الصفحات الواحدة تلو الأخرى، وأنا أنتظر رأيه بصبر نافد، حتّى أكمل أخيراً بعدما ظلّ يقرأ لساعة أو أكثر بدقائق لكنّني حسبتها دهراً بأكمله من شدّة الانتظار.

أخذ نفساً عميقاً وكان أوّل ما قاله وفي صوته صرامة: "لو وقعت هذه الأوراق بين يديّ وكنتُ مخبراً يومها، لكانت جميع هذه الأسماء وراء القضبان ودون

أمل في النجاة." وأوضح أكثر أن بين يديّ الآن دليلاً على وجود أفراد يقومون بعمل ضد الدولة – هكذا قال كأنّما هو بصدد متابعة قضيّة خطيرة، وهنا كان عليّ أن ألاحظ أنّ رجال الاستخبارات يستخدمون نفس اللسان أينما وجدوا – وهذه الصفحات خيط يكفي سحبه ليسقطوا جميعاً مثل قطع الدومينو الواحد إثر أخيه.

ومضى بعد ذلك يخبرني أن الأوراق التي بين يديه تمثّل محاضر اجتماعات لمجموعة متآمرة على الحكومة كما قال، وأضاف أن هذه المجموعة حسب معلوماته المشتّتة قد تكون ربّما واحداً من احتمالين، إمّا هي تعود إلى جماعة ذات صلة بإحدى الحركات المتمرّدة التي كانت تقاتل الحكومة وقتها كالفدراليين الذين كانوا يطالبون بالإقليم الواحد ومن قبل الاستقلال حتى، أو الانفصاليين الذين يئسوا من مسألة المطالبة بالإقليم وقرّروا المطالبة بدولةٍ خاصّة بهم، وأولئك في الغالب من الفلول التي نجت من اضطرابات "توريت" وسائر مدن الجنوب عشيّة جلاء الإنجليز، ولكن انخرط في صفوفهم الكثير من الموظفين وبعض طلاب المدارس، ليجعلوا الحياة خطرة وصعبة جداً بكمائنهم التي لا تنتهي على الحكومة ومؤسّساتها، وخاصة بعد أن أخذوا يستقبلون في كل يومٍ تقريباً قادمين جدداً في صفوفهم، وأولئك في الأغلب رجالٌ غاضبون من تصرّفات الجنود الذين كانوا كلّما سقط منهم قتيل،

اتّجهوا إلى أقرب قرية طلباً للثأر من السكّان المحليّين تحت ذريعة إيوائهم للفعلة.

ومضى يقول إنّه لا يشك أبداً في أن جميع تلك الأشياء ربّما مرّت عليّ بشكل أو بآخر، صحيحٌ أنه ليس بالتاريخ الذي لقّنونا إيّاه في المدارس لكنه على الأقل ما كنا نعرفه في بيوتنا جميعاً نحن الجنوبيين، ولكن الأمر هنا يبدو بالنسبة له مختلفاً نوعاً ما – هكذا قال – وهو ما جعله يفكر في الاحتمال الثاني، الذي أشار إلى أنه يميل إليه كثيراً بحيث يمكنه إسقاط الأول عن رأسه حتى دون أن يقلق ولو قليلاً من ذلك.

وهكذا مضى في الاحتمال الذي ركن إليه يشرح قائلاً "ما يظهر هنا يا صديقي هو أنّنا نتعامل مع جماعة سرّية، ربّما تعمل منفصلة أو كخليّة تتبع لجماعة أكبر منها، لا شك في أنّنا قد وقعنا على الأعضاء أو على الأقلّ بعضهم، ولكن تبقى بعض الأسئلة الحائرة التي تريد أجوبة، مثل أن نعرف اسمها وبعد ذلك أهدافها إنْ وجدت وهي موجودة بلا شك، إذ لا يمكن لأحد أن يخاطر بنفسه مقابل لا شيء، ولا يمكن الوصول إلى كلّ ذلك إلّا عبر البحث عن تلك الأسماء جميعها."

وهنا تدخلتُ لأقول له إنني أرى أن هدف الجماعة، كما يظهر، هو نفسه هدف الجماعة الثانية التي تحدّث عنها ضمن الاحتمال الأول، وبالتالي تبقى في رأيي مسألة البحث عن اسمها هي ما ينبغي أن يشغلنا، ردّ عليّ بأنّ ذلك ربّما يكون صحيحاً من النظرة الأولى

للأمور، لكنّه كرجل استخبارات يظلّ يبحث عن الاعتراف من جانب المتّهم، وحتّى إذا ما وجد دليلاً فإن ذلك وحده لا يجعل ضميره يرتاح، هنا أبديث له ملاحظة أنّ جميع الأسماء الموجودة على الدفتر فارق أصحابها الحياة إلا...

وقبل أن أكمل قاطعني قائلاً "ربّما إلّا باسيلي، لكنّ غيابه طال". بعد ذلك أسرّ لي بأنّه يخشى ألّا يعود ويلحق – لا سمح الله – بمَنْ في الدفتر، وإذ لاحظ فزعاً على وجهي قال في ما يبدو محاولة للتخفيف من وطأة كلامه ووقعه السيّئ على نفسي: "إنها معلومة غير مؤكّدة لكنّ أحد الأصدقاء أخبرني أنه قد رآه في العاصمة وكان يبدو على بدنه الهزال الشديد كأنّه مصابٌ بمرض خطر أو شيء من هذا القبيل، لكنّ صديقي قال إنّه بدا محافظاً على بشاشته ومزاجه الرائق كأنّما الأمر لا يعنيه بشيء."

شعرتُ بأنّ سوء الحظ قرّر العودة إليّ مرّةً أخرى، وأخذتُ أتذكّر ما قالته لي كوليتا قبل بضعة أيّامٍ فقط، من أنّه قد سافر في غير الوقت الذي يسافر فيه عادةً كلّ سنة، لم أكن متشائماً لدرجة أن تصل مخاوفي إلى سقف أنه – لا سمح الله – قد يموت مثلاً، ما يعني ضياع فرصة أن أعرف منه أشياء عن الجمعية وإلى الأبد ربّما، لكنّ خوفي كان بأكمله من الاحتمال الكبير بألّا يعود في وقت قريب من الآن بحيث أكون قد عدتُ أدراجي قبل أن يعود هو، وذلك بالنظر إلى تسرّب الأيام

سريعاً بين يديّ مع قرب انتهاء إجازتي، لكنّ الأهم هو استحالة أن أستطيع تجاوزها بأكثر من سبعة أيّامٍ في أسوأ الاحتمالات. وذلك لأنني لا أستطيع جعل غيابي عن أمّي أكثر ممّا غبته حتّى اللحظة، فهي بذلك تكون قد بقيت بمفردها حوالى شهر تقريباً، وذلك بعد أن رجعت شقيقتي الصغيرة إلى منزلها بمجرّد أن عادت المياه إلى مجاريها بينها وزوجها، وهي التي كانت قد أقسمت في إحدى نوبات الغضب التي تعترضها ألّا تعود إليه أبداً، لكنّها سرعان ما حنثت بقسمها كديدنها دائماً، حيث اعتدنا أن تأتي في بعض الأحيان ليلاً وهي ملأى بالغضب فيما تقسم بأغلظ الكلمات، ألا تعود ثانية إليه، لكن ما إن تصبح الدنيا حتى تبدأ بلملمة وجمع أغراضها وتستأذن في العودة كأنّ شيئاً لم يحدث أصلاً، لكنّها والحق يُقال مكثت كثيراً هذه المرّة، أكثر من أسبوع بقليل ما جعلنا نكاد نصدّقها ويبدأ القلق بشأن مستقبلها بالسيطرة علينا.

على أيّ حال، مضى تعبان في الإتيان بأكثر من محاولة كيما يزول القلق الذي انتابني جرّاء كلامه، ولم أستطع السيطرة عليه أو حتى إخفاءه بالطريقة المناسبة، فأشار إلى أن الأمر- يقصد حالة باسيلي – ربما يعود إلى أن صديقه الذي حدثني عنه وقابل الرجل قد يكون ضخّم ما رأى حتّى يلفت ويشدّ الاهتمام أكثر إلى ما كان يقول، وأضاف "إنّه لأمرٌ معتادٌ هنا أن يجرحك أحدهم أو حتى يقتلك من أجل أن يجعل

قصّته مشوّقة، فلا تقلق أبداً يا صديقي." لكنّ جميع محاولاته الصادقة تلك، باءت جميعها بالفشل لأن الفأس قد وقعت على الرأس.

تركنا أمر باسيلي جانباً وعاد إلينا الدفء الذي فارقنا وغادر التوتّر الذي جلبه ذكره مجلسنا، بعد أن قطَع الفطور جلستنا حيث ذهبنا إلى "مشاوي الضأن" الذي أكلنا فيه عند لقائنا الأوّل صدفة عشيّة وصولي. وكأنّ الليلة تعيد نفسها، وجدنا أنفسنا نعود إلى ذات البار الذي جلسنا فيه معاً للمرة الأولى وانتبهتُ إلى أن اسمه هو نفسه اسم أبي "بار مرجان"، فضحك إذ لاحظ عدم انتباهي لذلك من قبل.

ومرّةً أخرى عدنا إلى الدفتر وتبدّلت الأدوار بيننا ليتحوّل هو إلى السائل هذه المرّة، لكنه لم يكن يدري أنّ نفس السؤال الذي همّ بإلقائه هو نفسه الذي يدور في رأسي، إذ أخذ يسأل: ألم تلاحظ شيئاً يخصّ أباك، ألم تلاحظ أن اسمه يرد في جميع تلك الصفحات. هنا سارعتُ لأخبره بأنّه نفس السؤال الذي كنتُ أوشك أن أطرحه عليه، وها أنا أنتظر ردّه على أحرّ من الجمر بل ولا أُبالغ إذا ما قلتُ إنّني لم أكن أنتظره إلّا من أجله، لكنّه عندما أجاب بدا لي كمَنْ يمسك بالعصا من المنتصف، لا يقيناً كما أردتُ له أن يكون حيث قال إن أبي كما يبدو له ربّما كان رأساً مدبّراً، أو شيئاً أقلّ خطورة من ذلك.

الثلاثاء ١٩ أغسطس ٢٠١٥م

التقيتُ جو، ذهبتُ إليه حيث يعمل، وكما توقعتُ وجدته منغمساً في وضع اللمسات الأخيرة على النصب، وبدلاً من أن أتحدّث معه وجدتُ نفسي أجول بين غرف المنزل بمفردي. لم أشأ أن أزعجه وأصرفه بعيداً عمّا هو فيه، لكنّه انضم إليّ عندما سمع نباح "تايقر"، الذي خمّنتُ أنّه ربّما انزعج من تجوالي بتلك الثقة المفرطة داخل عرينه، كأنّني سيّد المكان لا هو.

أبدى جو ملاحظة بأنّني لستُ على ما يُرام كما يظهر هذه الأيّام، وأنني لستُ كما رآني في المرّة الأخيرة قبل أيّام فقط، صرتُ أبدو له كمَنْ زاد عمره سنوات بين ليلة وضحاها.

اكتفيتُ بأن عزوتُ ذلك إلى الفتور والتعب ولا شيء غير ذلك، ومضيتُ قدماً أكثر لأخبره بأنّه قد مرّت بي أيّام عدّة دون أن أعبر إلى الجهة الأخرى من المدينة بسبب شدّة ذلك التعب.

وإذ أتيت على ذكر الطرف الآخر من المدينة، سارع وكأنه نسي أمراً بالغ الأهمية إلى إخباري بأن "الشباب هناك بخير ويحتفلون الآن." وأضاف مفسّراً "لقد كسبوا قضيّتهم في المحكمة ولن تُزال جثّة الخفافيش، لقد كان أمراً مباغتاً للجميع أن يصدر مثل ذلك الحكم." فرحتُ جداً لسماعي الخبر لكن دون أن أكون مستعداً للحاق بالحفلة على أيّ حال.

بعدما أكملنا معاً تلك الجولة المرتجلة بين أزقّة المنزل، سألته عمّا إن كان انتابه في أيّ لحظة من مشروعه، الظنّ بأنّه قد يكون وراء المجزرة التي وقعت هنا أمرٌ أبعد من مجرّد كراهية الجنوبيّين والعنصرية ضدّهم عامةً، كما تقول الحكومة اليوم فيما تحاول جعل المناسبة مناسبةً وطنيّة. أوضحتُ له ما أرمي إليه أكثر إذ لاحظتُ عدم تجاوبه معي، بالقول "كأن يكون المقصود مثلاً من المجزرة كلها مجموعة من الأفراد، ربّما لا يتعدّون أصابع اليد الواحدة." بعد ذلك أوضحتُ له أنّ الأمر كلّه مجرّد فكرة برقت في رأسي وأنا في الطريق إليه، إذ فكرتُ أن النُصب قد يحتاج إلى قصّة مؤثرة تُروى إلى جانبه حتّى يشدّ انتباه الزوّار أكثر.

"مجرّد فكرة سخيفة خطرت لي ليس إلّا". كرّرتُ القول في ما يشبه الاعتذار ليردّ بأنّه كان يفكّر في أمر مشابه منذ فترة، قبل أن يسأل عن جدوى قتل الجنود كلّ ذلك العدد من الناس، ومن أجل اصطياد حفنة صغيرة فيما بمقدورهم اعتقال المدينة كلها إذا ما أرادو ذلك، كانت أيديهم مطلقة بالكامل.

تركتُ النصب وقد اكتمل جميلاً يتلألأ تحت الشمس، وعدتُ إلى المنزل مبكراً جدّاً لأن خالي "إستانسلاوس"، الذي طالما أحببتُ اسمه وتمنيتُ أن يكون اسماً لي، سوف يصل صباح غد كما وعد. أتمنّى أن أراه بلوعة وحرارة، كثيراً ما يُقال إنّه يشبهني، أقصد القول إنني أشبهه هو.

الأربعاء ٢٠ أغسطس ٢٠١٥م

لم يصل خالي "إستناسلاوس" ولن يصل أبداً!

ذهبتُ إلى المطار مبكراً جداً، وقد ارتديتُ أفضل ما عندي من ثياب، بنطالاً أسود وقميص البولو الأزرق الجديد وحذائي الأسود يلمع، لأكون في استقباله، لكنّه لم يصل.

انتظرته من الصباح إلى الظهيرة لأنّ رحلته قد تأخّرت، قيل إنّ الطائرة قد توجّهتْ إلى جهةٍ أُخرى أولاً، ما أوقع موظفي الشركة في عبء أن يكرّروا الاعتذار عن تأخر وصول الرحلة المرة تلو الأخرى لأكثر من ست ساعات.

حتى أثلج الإعلان عن وصولها الصدور بعد أن ضاقت وكادت تنفجر من السأم نتيجة الانتظار، ليعمّ الفرح المنتظرين جميعاً إلّا أنا، حيث بقيتُ منتظراً بكلّ أمل ودون كلل حتّى غادر آخر الركوب الصالة دون أن يظهر مطلقاً.

عدتُ إلى المنزل وخاطري جريح، منكسر، وزاد تحطماً وانكساراً فور وصولي حيث وجدتُ رسالةً تنتظرني. قال إنه حاول الاتصال بي لكني وقتها كنتُ في الطريق إلى المطار، ليخبرني بأنه "لن يأتي اليوم، ولا حتى غداً، وربّما لن يزور المدينة إلّا في ديسمبر إذا ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لأنه قد مُنع من القدوم إلى

هنا." أضاف"لا تنسَ أنّ خالك أسترالي، وقد حذّرت السفارة من خطورة الوضع لديكم هناك"

لم أحزن لأنه لن يصل بل لتفضيله السلامة على لقائي، وتملّكني شعور قويّ بأنه لن يأتي مرّةً أخرى، وذلك لأنّه عاد إلى نغمته القديمة من إطلاق الوعود بالعودة في ديسمبر من كلّ عام.

بعد هضمي رسالته تلك، أحسستُ بالوقت قد أصبح فارغاً وطويلاً، وزاد من ذلك الشعور أنّ المطر بدأ ينهمر بشدّة في الخارج، وللمصادفة في ذات اللحظة التي فكرتُ فيها في التمشّي قليلاً، وهكذا وجدتُ نفسي بلا خيار سوى أن أستسلم، وأبقى حتّى يوم غد.

وخلافاً لكلّ التحذيرات من خطورة تشغيل المذياع أوان هطل المطر، اعتقاداً بأنه قد يسبّب إصابة المكان بصاعقة، رحتُ أحرّك مؤشّره متنقلاً بين المحطات بحثاً عن الموسيقى، وأخذتُ في ذلك وقتاً طويلاً نسبياً قبل أن أستغني عنه، بعد أن وجدتُ معظم إذاعات "الأف.أم" المحلية متوقفة عن البثّ، دون أن أعرف إن كان ذلك مجرّد صدفةً أم تأثّراً بالمطر ربما.

بعتُ فكرة المذياع كما يُقال، وبدلاً منها جلستُ على الطاولة، رحتُ أقلّب أوراقي وتأسّفتُ جداً، إذ اكتشفتُ أنّني لم أدوّن أشياء مهمة حدثت لي، كما لم أعد إلى مراجعة بعض الالتزامات التي عاهدتُ بها نفسي، مثل أن أتعلّم السباحة.

لكنّ الأهم من ذلك جميعاً أنّني راجعتُ لقائي مع تعبان، فوجدتُ أن أسئلتي قد تقلصت إلى استفهامات بسيطة، إنْ وجدتُ أجوبةً عنها ارتاحتُ نفسي واستكانت، دوّنتها على النحو التالي في ورقة منفصلة:

"ما اسم تلك الجمعيّة السرّية؟ ما دور أبي فيها؟ هل لها علاقة بالمجزرة؟ لماذا ظلّت طيّ الكتمان حتّى بعد الاستقلال؟".

وكتبتُ أسفل الورقة "تنتظرُ باسيلي".

الخميس ٢٧ أغسطس ٢٠١٥م

لم أصدّق أُذنيّ عندما سمعتُ أنّ باسيلي قد وصل إلى المدينة اليوم، فوصوله أخيراً وفي هذه الأيّام بالذات، جعلني أشعرُ بأن الحظ السعيد لم يغادر دربي تماماً، وخاصّة أن ذلك جاء بعد الخيبة التي أُصبتُ بها منذ عودتي من المطار صفر اليدين، دون خالي الذي عاد إلى أستراليا دون أن أراه.

وقد بلغت بي الخيبة درجة أن وجدتُ نفسي أمكث في المنزل لأكثر من أسبوع دون أن أخرج، حتى افتقدني الأصدقاء جميعاً وشعرتُ بالفخر أن أعني شيئاً لأشخاص لم أجدهم إلّا هنا، طبعاً باستثناء تعبان الذي يشاركني الطفولة والذكريات ما يجعل احتياج كلينا إلى الآخر تحصيل حاصل.

لم أتوقع أن أكون ذا جدوى بالنسبة للذين عرفتهم هنا، خاصّةً أن شعوراً ينتابني من حينٍ لآخر بأن الأسئلة الكثيرة التي أجدُ نفسي طوال الوقت أطرحها عليهم تجعلني ثقيل الظل، لأن "الكلام أخذ وعطا" كما يُقال، لكن ذلك ما حدث، واشتاقني أكثر من صديق بل وجدتُ نفسي في ما يشبه العيد أستقبل هذا وأودّع ذاك.

أولاً، وفي مفاجأةٍ سعيدة لم أتوقعها أبداً، طرقت إستر الباب وكان يقف إلى جانبها شقيقها جو، قالت فيما كنتُ أنظر إليهما فاغر الفاه من الصدمة "ألن تدعونا إلى الدخول، أم علينا أن نضيّف نفسينا".

جلس ثلاثتنا في صالون الضيوف تحت ضوء خافت يتسرّب بهدوء عبر الستائر الثقيلة، وأخذنا نتبادل خيوط الحديث كأصدقاء مضت عليهم سنوات طويلة دون أن يلتقوا، وكانت كوليتا تأتي فتشاركنا الكلام بين فينة وأخرى، فقد كانت على معرفة بهما كما علمتُ من خلال سؤالها عن أحوال أسرتهما وبعض الغائبين من أفرادها وإبدائها الاهتمام الشديد بكلِّ كلمة يقولانها، مع إطلاقها همهمةً خافتة وهزّ رأسها دليلاً على الاهتمام الشديد. علمتُ منهما بعد ذلك أنها تمتّ إليهما بصلة قرابة بعيدة، وبدت بالفعل هذه هي الحال حيث لم يستطيعا اختصار تلك الصلة في كلمةٍ واحدة كأن يقولا مثلاً إنّها "خالتنا" أو "عمّتنا".

كان أمراً جيداً بالنسبة إليّ أن يحضرا معاً، فذلك بمثابة إشارةٍ تعني أننا قد صرنا جميعاً أصدقاء، وأنّ ما يراودني من رغباتٍ في بعض الأحيان بإمكانية أن تنشأ بيننا علاقةٌ عاطفية قد ولّت بدون رجعة، وربّما عليّ الآن أن أبدأ بالتفكير مجدّداً وجدّياً هذه المرّة، في الردّ على رسائل نجوى وإرسال رقم هاتفي إليها في أسرع ما يمكن. أوليست هي مَن طلبت منّي ذلك؟

كان أمراً غريباً أن أفكّر على ذلك النحو، أن تكون الزيارة نفسها من أجل الوداع، إذ لم أكون أنا وحدي مَن يزمع السفر، فبعيداً عن سفر جو الوشيك، الذي أعلمه منذ لقائنا الأول والذي أصبح مسألة وقت لا أكثر بعد أن أكمل بناء النصب الذي أراد به أن يخلّد لنفسه ذكرى

تُسجّل مروره بالمدينة، لأنه كما قال لي من قبل لا يريد العودة إليها ثانية، فوجئت بشقيقته أيضاً تريد هي الأخرى السفر. قالت إنها قد حسمت أمرها ولم تعد تستطيع الاستمرار هنا حيث كلّ السنوات متشابهة، حتى لتبدو الحال وكأنّك عربةٌ عالقة في الوحل ليس بمقدورها التحرّك إلى الأمام أو الخلف، لكن الحرب جعلت الأمور أكثر سوءاً من ذي قبل.

سألتها عن وجهتها فأجابت بأنّ أرض الله واسعة، في إشارةٍ إلى أنّها لم تحسم أمرها بعد في هذا الشأن، لكنها بعد ذلك حصرت كلامها بأنّها قد نالت منحة دراسية في إحدى الجامعات المصرية، وإن ذلك دون شك فرصة جاءتها على طبق من ذهب لتهاجر إلى العالم الأول، وأضافت ضاحكة يقولون إنّ هناك سُلّماً يقود إلى أميركا مباشرةً.

بعد ذلك أوضحت أنّه ليس سوى أيّام قبل أن تطير إلى القاهرة، وأنها قد انتظرت أن نلتقي صدفة حتّى تخبرني لكن انتظارها طال، بل انتابها القلق من أن أكون سافرتُ خلسةً أو سقطتُ مريضاً، خاصةً بعد أن سمعت من شقيقها أنّني لستُ على ما يُرام، وأشارت إلى أنّه عندما يختفي الشخص من الشوارع التي اعتاد المرور بها، فإن الحصى ستشعر بأن شيئاً ما لم يعد موجوداً، فكيف بالأصدقاء الذين يشعرون بك ويهتمّون لأمرك.

أجبتُها إذ سمعتُ كلامها الذي وقع عليّ كالندى، بأنّها ليست مجرّد ممرّضة بل مشروع شاعرة، وقلتُ متوجّهاً

بانتباهي إلى جو الذي ظلّ مهملاً لفترة من الوقت "إننا أمام عائلة فئية إذاً"، وأنا أدفع نحوه بسؤالٍ عن الشعور الذي ينتاب الفئان بعد أن ينهي عملاً ظلّ يؤرّقه طويلاً:

– هل هو الانتشاء؟

– لكنّه الحزن هذه المرّة.

– كيف ذلك؟

– مات تايقر بلدغة ثعبان.

– أوه آسف، يا له من مسكين.

حكى الأمر قائلاً: في اليوم التالي وبعد اكتمال النصب وُجد المسكين نافخاً تحت شجرة الدليب، ولم يكن الأمر يحتاج إلى خبرة لنعرف أنّه تعرّض للدغة ثعبان، فقد ظلّت بقايا الزبد كثيفةً حول فمه، فيما أثر أسنان الزاحف الغدّار باديةً على عنقه بكلّ وضوح.

وعلمتُ منه أيضاً أنّ الكلب المحبوب قد دُفن بالطريقة التي تليقُ بكائن محترم، بعدما كُفّن بقطعة قماش ملوّنة بدل الدمور الأبيض، وأُطلِقت في وداعه طلقتا خرطوشٍ في الهواء، لأنّه كان مثل جنديّ ملتزم وصالح في حراسة المكان.

وجاءني أيضاً "لومومبا" ومعه بعض الكاسيتات الكونغولية التي قال إنها نادرة جداً، وكان يفكر فترة طويلة في كيفية حفظها من التلف والضياع قبل أن يهتدي أخيراً إلى أنّ ذلك ممكن فقط بتحويلها إلى أقراص مدمجة، وهو الأمر الذي لا يمكن مع الأسف إلّا في الخارج، ويحتاج بالتالي إلى شخص يقدّر أهمية

الأمر، سلّمني الأشرطة وهو يقول "حتى لو لم تستطع إنجاز ما كلفتك به، فلن أندم لأنّ هذا الكنز سوف يكون في يدٍ أمينة".

بعد ذلك أخبرني أنّ الشباب كانوا يتوقّعون أن أشاركهم فرحتهم عندما كسبوا المحكمة، وأضاف أن شيئاً لم يفت حتى الوقت لأن الاحتفال الرسمي لم يُحدَّد بعد، وأنّهم يريدون له التزامن مع احتفالات الحصاد التي سوف تُقام متأخرةً وبعد طول انتظار، بعد أن زال الخوف لأن قاتل "كجور المطر" قد سلّم نفسه لذوي القتيل الذين سلّموه بدورهم للشرطة، وطلبوا منها أن تطلق سراحه لأنهم لا يأخذون بثأرهم من الجبناء، كما لا تأخذها لهم أيّ جهةٍ أُخرى لأنه ثأرهم هم.

ورغم أنّ الحضور لن يكون ضخماً كما كان سيحدث لو أنّ العيد قام في وقته وجاء الرئيس مثلما كان يتوقّع وينتظر الجميع، وذلك لأنه كان سيجذب إلى المدينة المدن المجاورة كلّها، فيحضر مَنْ يدفعهم مجرّد الفضول إلى أن يروه ليكون بعد ذلك موضع حديثٍ يحلّي كلامهم لأشهر أو أعوام حتى، دون الذين يحملون أوهاماً بأنّه قد تتاح لهم فرصة شرح مشكلاتهم المعيشية له ليحلها على الفور، أو لم يسمعوا أنه يوزع النقود والأموال أينما حلّ؛ فالجميع تقريباً شبه متأكد أن صناديق ملئية بالأوراق النقدية لا تفارق موكبه أبداً، وذلك من أجل المحظوظين بلقائه من الفقراء وذوي الحاجة.

إنّهم يأملون أن يكون لاحتفالهم صدىً أكبر وطعم أجمل، حتّى يعيدوا الأمل إلى منْ فقدوه حتى وإن كانوا يواجهون ابن الرئيس. لم أجزم له بوعد أن أكون موجوداً أوان ذاك، وذلك بكل بساطة لأنه لم يحدّد يوماً بعد من التقويم ليكون موعداً للعيد ما يعني أنهم سوف يظلون في الانتظار، أما أنا فكنتُ أتمنّى صادقاً ومن قلبي لو كان بإمكاني الحضور في اليوم الموعود يومها، حتى أتمكن من مشاهدة رقصات الرجال المقنعين لأن حفلة الرقص الكبيرة سوف تُقام في ذات الموعد كما علمت.

رغم الفرح العارم الذي عمّني عندما أبلغتني كوليتا نبأ عودته من رحلة علاجٍ طالت، وكيف أنه أول ما رآها وبعد أن سلم عليها سألها رأساً عنّي وطلب منها أن تبلغني سلامه وأمنياته الطيبة، فضّلتُ أن أتريّث قليلاً ولا أهرع إليه حتّى يعتاد على هواء المكان مرّةً أخرى، ويفرغ من عبء استقبال الضيوف من الأهل والأصدقاء والمعارف الذين لا ريب قد يكونون افتقدوه، وقرّرتُ أن أذهب إليه في يوم ميت كالاثنين أو الثلاثاء مثلاً حتّى أجد متّسعاً من الوقت للجلوس معه، وحتى ذلك الوقت عليّ أن أستمتع بفرحي وأحتفظ بأسئلتي لنفسي.

الاثنين ١ سبتمبر ٢٠١٥م

اليوم التقيتُ بالعم باسيلي كما يحبّ أن أناديه، وعليّ أن أعترف بأنه بدا مختلفاً عن آخر مرة رأيته فيها، ورغم أنها كانت المرة الأولى والأخيرة في ذات الوقت، وكان ساتر من ظلام الليل يغطي المكان بحيث لم تنجح الإضاءة الخافتة لمجلسنا – وقتها – في تبديده بالكامل، يمكن القول بنظرة عامة إنّ ثمّة تغيّراً قد طرأ عليه. أصبح أطول من ذي قبل في عيني، وهزل جسمه كأنّه فقد كيلوغرامات كثيرة من وزنه، فيما تحوّل شعر رأسه إلى كتلة من البياض، كأنّه زهرة قطنٍ تفتّحت لتوّها، وأحسستُ بلونه قد صار أدكن وفي يديه نتوءات بثورٍ تعافى منها.

وجدتُه يجلس وحده في ظلّ صغير أمام غرفة الضيوف، وعلى الطاولة الصغيرة أمامه مذياع وإبريق شاي، وما إن رآني أدخل حتّى سارع إلى الترحيب بي وقد نهض عن كرسيّه، وأخذ يدعوني إلى الداخل لأن الشمس بدأت تصبح حارقة جداً، وهنا لاحظتُ أنّ الوهن قد دبّ في جسمه بالكامل وبدا في حركته نوعٌ من الارتجاف. تبعته إلى الصالة وأنا أساعده في حمل الكرسيّ والطاولة، وأخذ هو يعتذر بأنّ الحياة قد شتّتت الأبناء في أقاصي الأرض كلها، بحيث صار هو العجوز بحاجة إلى أن يخدم نفسه في كلّ شيء، وكان عليّ أن أطبّب عليه بأن تلك هي الحياة وسنّتها الظلم دائماً.

تذكّرتُ ما قالته كوليتا عن جئته من قبل بمجرّد أن انفتح باب المنزل، فعلى العكس من الكآبة والسأم اللذين تقرأهما على حائط المنزل من الخارج – الذي يبدو من علوّه الشاهق وتراكم ذرّات الغبار عليه، مثل جدران السجن المجاور له على الناحية الأخرى من الطريق، الذي يتلوّى كأنّه ثعبان بين بنايات السوق الكبير المشتّتة على جانبيه، قبل أن ينتهي بالاتساع أمام قصر الحكومة والتفرّع حوله إلى قسمين، ينزل أحدهما عن شمال المبنى مباشرة فيما يذهب الآخر ليحاذي الجسر القريب، قبل أن ينزل كزقاق صغير يفضي إلى الضفة مباشرة – فإنك ما إن تطأ صحن المنزل حتى يتغيّر كلّ شيءٍ في لمح البصر، فتجد نفسك داخل فردوس من أشجار القشطة والرمّان والليمون التي تعطّر الهواء بخلطة أريجها الزكيّة، إلى جانب أزهار مختلفة الألوان تجري جميعها متسلّقة على ذات الجدار الكئيب الذي تأسى له من الخارج، فيما يجري الماء عبر جدول واحد يمرّ بالأشجار والأزهار جميعاً، ويبدو أنّه ينبع من بئر مندسّ في إحدى زاويا المكان، وتكلّل كلّ ذلك زقزقة عصافير يقبع قفصها في منتصف المكان كأنه دوّار لتنظيم حركة السكّان.

بعد أن استقرّ لنا الوضع فأصبح كلّ شيء من ماء وشاي أمامنا، بادر بالاعتذار أولاً لعدم لقائنا مرّةً أُخرى منذ تلك الليلة، ولم أكن بحاجة إلى أن يخبرني عن مرضه الذي غيّبه كثيراً، فقد كنتُ على إحاطة تامّة بكل

تلك الأمور ولذلك كان فرحي عارماً بقدومه، ولم أشأ بالتالي أن نتحدّث كثيراً عن ذلك وإنْ كنتُ قد حرصتُ على أن أؤكد له أنه سوف يكون بخير ولا خوف عليه طالما استمر في مواظبته على الدواء بذات الصرامة والالتزام، وأعجبني فيه جداً أنه لم يعذبني بأسئلة طبّية لا تنتهي كما يفعل الكثيرون عندما تسنح لهم فرصة مجالسة طبيب، بل عوضاً عن ذلك ظلّ طوال الوقت يتحدّث بعيداً عن كلّ تلك الأمور ولا يناديني إلّا مستخدماً كلمة "يا ابني".

ولأنني كنتُ أنتظره طويلاً لم أرد أن أضيّع أيّ فرصة معه، واضعاً في الاعتبار أنه قد يكون اللقاء الأخير بيننا، سارعتُ إلى إخباره بعثوري على دفتر أثار وشدّ انتباهي بين أوراق زوج كوليتا المرحوم، وانتظرتُ لأرى ردّة الفعل على وجهه هل يحزن أم تراه يبقى صخراً لا يتأثر.

لم تظهر عليه أيّ علامة تدلّ على التأثر، فقط جاء صوته بارداً، ويضجّ بلامبالاة "إذاً فقد سمحت لك بالاطلاع على أوراق زوجها المرحوم." ثم أضاف يقول بهدوء والحزن يشوب صوته هذه المرة "لطالما أحببناه لأنه كان يعرف كيف يحفظ أوراقه فلا تتلف أبداً، إنّه الطراز الحقيقي للمعلم الملتزم بالقواعد والأصول."

وهنا صمتُّ وانتظرتُ لعلّه ينهزم أمام الحنين فيتدفّق أكثر ويبوح، لكن ظنّي خاب إذ لاحظتُ أنّ ذلك لن يجدي معه حيث ظلّ متحفظاً، كأنّه يخشى البوح

بأسرار لا يريدها أن تُعرف، ولذلك لم يكن من خيار أمامي سوى أن أمضي في محاولة إثارته، فأكشف له أن محضر اجتماعاتهم السرّية قد وقع في يدي. عند نطقي بذلك لاحظتُ أنّ ملامحه قد تغيّرت، فعرفتُ أنني قد وصلتُ أخيراً إلى الطريقة التي أجعله يتكلم بها.

لا بدّ من أنّه لاحظ من ملامح وجهي أنّ مشاعره قد اهتزّت لذلك حاول التماسك، فتحدّث بجدّية وقد رمى باللامبالاة بعيداً عنه ليقول إن هناك بالفعل محاضر اجتماعات مثل التي ذكرتها، لكنّه نفى أن تكون تلك جمعيّة سرّية كما قلتُ، وأشار إلى أن ذلك أمرٌ كبيرٌ جداً بالنسبة إليهم، وأنهم في النهاية محض فنانين حاولوا المساعدة في قضية كان يخدمها الجميع، ولذلك لا يجب أن أذهب بخيالي بعيداً فأسأله عن اسم جمعية غير موجودة أصلاً، وأنه إذا قال بغير ذلك يكون كمَنْ يستغلّ أنّ الموتى لا يستطيعون الاعتراض على شيء أبداً.

بعد ذلك مضى بعض الوقت دون أن أسأله، ودون أن ينطق بشيء، كان الصمت قد بنى جداراً ثقيلاً بيننا. وكان عليّ أن أتذكر أنه مريض فلا أزعجه كثيراً، وكان عليه أن يستجمع شتات نفسه ويهدّئ من غضبه ربما.

وأخيراً عندما قرّر أن يكسر ذلك الجدار، لم يواصل من حيث انقطع الحديث بل نهض واختفى بعض الوقت، ثمّ عاد وهو يحمل صندوقاً صغيراً طلب ألّا أفتحه إلّا عندما أكون وحدي.

سألني عمّا إذا كنتُ زرت منزلنا القديم أسفل التلة، حيث وُلدت ومكثتُ بضع سنوات من طفولتي، فأجبته بـ"لا" ملقياً باللوم في ذلك على المرض وغياب الدليل المناسب، تأسّف وهو يهمهم بأنّ ذلك لا يهمّ إذ لم يبقَ منه سوى الأسوار العالية تقاوم الزمن، وتخفي بالداخل عوالم بأكملها من الذكريات.

بعد ذلك تدفق: "هنالك كانت الأغنيات تُصنع، وفي بعض الأمسيات نجتمع، أتذكر أن ذلك كان يتمّ دائماً في الآحاد، حيث نستخدم الرقص في الساحة القريبة ستاراً فلا يعرف أحد ما نفعل، أو ربما كانوا يقولون أولئك محض معربدين، كنا نتحدّث عن إخوتنا في الخارج، نرسل لهم مَنْ يريد الذهاب ونستقبل جرحاهم أحياناً، لكنّنا كنّا نعتبر أنفسنا في النهاية محض فنّانين رسالتنا أن نغنّي."

بما قاله انقشع الضباب وزال من أمامي فلا يمكن أن يكون "إخوتهم" دعاة الاستقلال، لم أشأ أن أسأله ثانيةً. أحسستُ أن الأفضل ربّما هو أن يظلّوا فنّانين كما هم، وأن أظلّ كما أنا أتخيّل الكثير وأعلم قليلاً، وهكذا كان عليّ أن أصمت لكنّه قلب الدور وتحدّث يسألني إذ لاحظ صمتي:

– ألا ينتابك الفضول لتعرف ما داخل الصندوق؟

– بلى، أريد.

– افتحه الآن إذاً.

في الداخل كان حذاء أبي البوت، وربطة عنقه الفراشة، وقميصه الملوّن يرقد مهترئاً، فقال لي هذا معنى أن تعذّبك الذكريات، أن يصير الرفاق محض متاع يرقد بالقرب منك.

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

في رحلة العودة إلى مدينته واو، يتقصّى أركانجلو مرجان قصّة والده الموسيقيّ الذي قُتل وتركهم أيتاماً... يقوده حلمه الذي يتكرّر في ليالٍ عديدة.

الطبيب الذي يلامس حدود الموت في رحلته تلك، يكتشف أنّ والده لم يكن مجرّد عازف، وأنّ وراء مقتله قضيّةً أكبر من صدفة إطلاق نار...

يرصد أركانجلو أجواء مدينته بعد استقلال جمهورية جنوب السودان، ومآل الأحلام التي بناها أهلها.

نبذة عن المؤلف

بوي جون كاتب وقاص سوداني.